سلسلة شهادات سورية 7

مزهرية من مجزرة

مصطفى تاج الدين الموسى

بيت المواطن
للنشر والتوزيع

مزهرية من مجزرة

مصطفى تاج الدين الموسى

مزهرية من مجزرة

سلسلة شهادات سورية -7- مزهرية من مجزرة
مصطفى تاج الدين الموسى

الإخراج الفني: فايز علام
لوحة الغلاف: «الحرب»، هنري روسّو (Henri Rousseau)
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2014

ISBN: 978-9953-583-47-1

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961+
فاكس: 750053 1 961+
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

الإهداء:

إلى ذكرى تاج الدين الموسى

1. تشييع

فراشة تاهت بين خرائب مدينةٍ، زارتها الحرب ذات يوم.

ثمة جنديٌّ تنوح من ملامحه رائحة داكنة، أطلق عليها رصاصة.. قتلها، فسقطت جثتها على الأرض.

في الليل وعلى جناح العتمة، ثمة أطياف طلعت من بين الأبنية المهدمة.. اقتربت من جثة الفراشة وحملتها بهدوء، لتشيّعها بصمتٍ مرير إلى أقرب مجموعة قصصية..

حيث دفنتها في قصة قصيرة.

2. قدر

بعد أن هبّت ـ فجأةً ـ على تلك الشرفة الصغيرة عاصفة رصاص، أطلقها على عجل ـ من بعيد ـ جنودٌ بملامحهم الفوضوية، بثلاث دقائق فقط.. وعلى الشرفة ذاتها.

فنجان القهوة انحنى عن الطاولة، حتى التقط الجثة، وراح يشربها بهدوء قبل أن تبرد.

3. خبر عاجل

ياسمينة حلوة.. تكفكف دموعها، وتلملم ما تبقى من عطرها في عتمة زقاقها.

ثم ـ بكل شجاعة ـ تنشقّ عن حوضها الحجري الداكن والبشع.

بضع أغنيات فيروزية، يقمن بتأمينها وإيصالها إلى أقرب كتيبةٍ للفرح.

هناك.. تعلن الياسمينة، بلغة الورد الفصحى ـ أمام عدسة جوال رخيص ـ انضمامها إلى المستقبل.

4. ذلك العسكري

ولأنه يبدو في منتصف الشارع، شبيهاً بخطأ نحوي فادح في نصٍّ هزيل، كتبه مجنون في لحظة طيش لا تغتفر.

ذلك العسكري الداكن، هكذا كان وهو يتفحص هويات الناس بملل، في طابورهم الطويل أمام الحاجز، والممتد حتى الأفق كخيطٍ طويل من النمل.

أحدهم تمنى في سره أن يبصق عليه.

هو كان موافقاً، لكن بصقته لم توافق.

وعلى هذا، وبكل حماقة ملامحه.. ظلَّ ذلك العسكري الداكن، يتمعن في الهويات عمراً كاملاً. لكنه لم يستطع ـ رغم محاولاته ـ أن يلفظ اسماً واحداً لفظاً صحيحاً.

5. تلك الأنيقة

ما كانت أناقتها مجرد نسمة هواءٍ تعبر على عجلٍ عيون عشاقها، المتناثرين على أرصفة جمالها.. أناقتها كانت مثل عاصفةٍ تزلزل أرواحهم، كلما هبّت عليها.

ذات شارع، في منتصف الحرب.. قناصٌ بشع الملامح، لم يدرك أنفه عبق عطرها.. أرداها قتيلة بلا مبالاة ببندقيته.

تجمّع عشاقها حول جثتها، ثم دفنوها ـ بحسرة ـ جانب أقرب ياسمينة مع كل عطرها.

هناك، في صمت غرفتها..

فساتينها الكثيرة الحلوة، أجهشت ببكاءٍ مرير وطويل في عتمة الخزانة.

لأنها ـ برصاصةٍ واحدة ـ قد خسرت كل ثروتها، وذلك العطر.

6. تلك الساعة

وكان أن يئس بندولها من انتظار عين ما، ترمق نوسانه الكئيب ولو على عجل.

تلك الساعة القديمة جداً، المعلّقة على هذا الجدار، أرهقها هذيان عقاربها.

وبحيرةٍ كثيفة.. كانت تراقب الوجوه الشاحبة، لتلك الجثث المستلقية أسفلها ـ كيفما اتفق ـ في هذه المجزرة الصغيرة، داخل غرفتهم البارد.

تلك الساعة.. أمعنت نظرها جيداً، في ما تبقى من وجوه القتلى.

أمعنت كثيراً.. أمعنت طويلاً.. علّها تعرف وقتها.

7. سندريلا

على عجلٍ، تحت ستار الليل، بوشاحٍ يغطي كل وجهها باستثناء عينيها.. كانت سندريلا تلصق على جدار زقاقٍ عتيق ملصقات معارضة.

من بعيد لمحها جنود الملك، فطاردوها بحنق بين الأزقة، لكنها اختفت فجأة، ولم يعثروا سوى على فردة حذائها.

الخبر وصل إلى الملك فاستشاط غضباً، ثم أمر جيشه بالتوجه إلى

كل مدن المملكة، وإجبار الناس على دسّ أرجلهم في الحذاء.. وقتل كل من يتطابق حجم رجله مع حجم الحذاء.

خلال شهورٍ قليلة اقتحم جنود الملك كل المدن والقرى، وارتكبوا فيها الكثير من المجازر، لأن أرجل كل الناس.. رجالاً ونساءً.. أطفالاً وشيوخاً، كان حجمها يتطابق مع حجم هذا الحذاء.

عندما انتهى الشعب رجع الجنود إلى ملكهم، فقلدهم بغبطة أوسمة النصر.

رغم هذا.. ظلت سندريلا تظهر ليلاً في زقاقٍ ما، كل بضعة أيام.. لتلصق على جداره ملصقاً معارضاً.

ثم تهرب، تاركةً خلفها، في كل مرة.. فردة حذاء.

8. فخر واعتزاز

بهدوء جلسن ـ على شرفتهن الداكنة ـ ليرتشفن فناجين الدم الساخنة.

القذيفة الأولى ذات الأسنان المتسوسة، صرخت بفخر:

ـ أنا قتلت تسعة أشخاص..

جارتها القذيفة الثانية ذات الندبة في جبينها، قهقهت وقالت باعتزاز:

ـ أنا قتلت ثلاثة عشر شخصاً..

صديقتهما القذيفة الثالثة ذات الأنف المعكوف، تمتمت باستهزاء:

ـ أنا قتلت واحداً وعشرين شخصاً..

رفيقتهم القذيفة الرابعة ظلت صامتة ببلاهة، وثمة شعورٌ بالخزي يتجول في عتمة عينيها. فهي تتذكر أنها عندما انفجرت، لم تقتل سوى طفل صغير وخمسة أرغفة خبز، كان يحضنها إلى صدره.

9. الفأر

منذ أن كان صغيراً، وكل سكان المجارير يتهكمون على غبائه.

هذا الفأر.. ما عاد يحتمل هذا الجوع الكافر، كل الغباء الموجود في رأسه قاده إلى تلك الزاوية المعتمة من هذه الغرفة المهجورة، أسفل بقايا سرير.

حيث عثر بمحض المصادفة على هويةٍ حزبية باهتة اللون رخيصة الحروف، يكللها الغبار والنسيان، مرمية هنا بلا مبالاة من أعوام.

جوعه أعماه، فراح يقضمها بنهم رغم طعمها المرّ.. حتى أنه التهم نصفها برفة جفن.

بعد دقائق.. تقيأ كثيراً.. تحشرج قليلاً.. ثم مات متسمماً.

10. الحقيقة المرّة

هو لا يزال يتذكر جيداً ذلك المساء الخالد في روحه وروحها.

ذات سكرة في خمارةٍ متواضعة منتصف زقاقٍ عتيق، على حافة شباكٍ من ياسمين، خلال أغنيةٍ لفيروز.

بعد قليل من النبيذ المزّ، همس لها وهي على حافة الانتحار بوحاً:

ـ لا تمنحيني أي سر من أسرارك، لأنني سأفضحك قصصاً..

ثم شاء النبيذ أن داخ قلبها، فانهمرت أسرارها الأنثوية على ملامحه.

منذ بضعة أيام فقط، انتهى من فضحها بقصة قصيرة، لن يهضمها أبناء أعمامها أبداً.

ملخصها: (أحمر شفاهٍ يتعثر بقبلة، فيسقط في الأبدية).

ليلة البارحة، وهو في منتصف زجاجة النبيذ الثالثة، تخيّل ـ في ما

يتخيّله المخمور ـ رسالةً على جواله من شقيقتها، فحواها: نبأ جثتها.. بسبب قذيفة.. أثناء الجامعة..

للنبيذ.. هلوسات غليظة..

لكن.. الآن، وبعد فنجان القهوة.. هو لا يعرف لماذا يرمق جواله بكل هذا الخوف.

11. بقايا ذاكرة

ـ في أي مجزرةٍ شاهدتك؟..

بكثيرٍ من الحيرة والتخمين، روح طفلٍ سألت روح طفلةٍ.. في محطةٍ للقطار على حافة السماء الخامسة.

روح الطفلة لم تجب، بصمت باحت بدمعة.

فهي.. منذ سماءين.. قد اختلطت عليها المجازر.

12. كلمة تاريخية

مستلقياً على أريكته، تؤرقه غرائزه في هذا الهيجان المتصاعد، كان الزعيم يتأمل بعينين جائعتين.. تلك الصور الخلاعية لفتيات جميلات، في هذه المجلة المخصصة للمتعة وشهواتها.

بلا استئذان، دخل عليه مسؤول أمنه ليخبره وهو يلهث أن الحشود المليونية تتجمع تحت شرفة قصره، وتهتف له وتودّ منه لو يرميها بتحية وكلمة.

ارتبك الزعيم كثيراً، فهو لم يجهز نفسه لهذه الإطلالة.

ولشدة ما ارتبك، التقط مجلته الخلاعية وأسرع إلى الشرفة.

حيّا الجماهير بقبضته، وضع المجلة على طاولةٍ أمامه.. فتحها، ثم

راح يخطب فيهم بلا كللٍ أو ملل، وهو ينحني كل عبارتين إلى المجلة ويقلب صفحة، ويتأملها.. وكأنه يقرأ خطبته منها.

وهكذا.. أربع ساعات وهو يزعق فيهم محدّثاً إياهم، عن أهم إنجازات القطاع العام، في الخطة الخمسية الحالية.

13. حدث ذات مداهمة

تعرّض منزل (ص) لمداهمة..

انهمك الغزاة بتخريب كل غرف المنزل.. في غرفته انتشر ثلاثة منهم، اثنان شرعا بتخريب المكتبة التي تحتوي رفوفها على مئات الأفلام السينمائية وآلاف الكتب، وذلك برميها أرضاً بحقد.

(ص) ظلَّ واقفاً كالنمر الوردي إلى جانب باب الشرفة يراقبهم بلا مبالاة.. أما الثالث فقد كان يتأمل مبتسماً تلك الصور المعلقة بغزارة على الجدران.. وكان أن وصل إلى زاوية عليها أربع صور متجاورة، ثلاث منها لسينمائيين عالميين والرابعة صورة قديمة لـ (ص) نفسه.

سأله (ص): هل تعجبك أفلامهم؟..

وضع ذلك الثالث سبابته على صورة (مارلون براندو) ثم على صورة (شون بين) ثم على صورة (جون مالكوفيتش) ثم على صورة (ص) أيضاً.. وكان يقول في كل مرة: تعجبني أفلام هذا الرجل!

ضحك (ص) في سره، وسأله ثانيةً وهو يشير إلى صورته القديمة: أي فيلم يعجبك لهذا الرجل؟..

أجابه بحيرة: له فيلم رائع.. نسيت اسمه.. لكن حبيبته تموت في نهايته..

عندئذٍ شعر صديقنا (ص) بخوفٍ غامض.

وعندما انسحب الغزاة.. لم يهتم للخراب الذي عمّ أرجاء المنزل.. ولا للأشياء التي سرقت منه.. ولا للمكتبة المنكوبة.. ولا حتى لشقيقه الذي تمّ اعتقاله..

إنما أسرع إلى الهاتف، كمسطول متورط بسيجارة حشيش، واتصل بحبيبته.. وعندما سمع صوتها تأكد أن فيلم الحب لديه، لا يزال مستمراً رغم أنف الموت.. وجهاته المختصة.

14. أثناء حلاقة الذقن

بصعوبةٍ كان يطارد وجهه في المرآة، وهو يحلق ذقنه منذ دقائق، ذلك البخار المتصاعد من صنبور الماء الساخن فوق المغسلة لوّث المرآة بضباب كثيف.. مما جعل عملية الحلاقة صعبة للغاية.

خلفه تماماً باب غرفة الجلوس، والذي يقابله من الجهة الأخرى، ذلك التلفاز وهو ينقل الآن آخر الأخبار الدموية عن تلك المدينة.

أزعجه كثيراً صوت التلفاز المرتفع، أما ضباب البخار الذي سيطر تماماً على كل السطح الزجاجي للمرآة.. فقد أوصل شتائمه، بحنق، حتى رأس لسانه.

كان يمرر آلة الحلاقة بعصبية على أعلى رقبته، عندما شعر بوخزةٍ حادة.. تأوّه، وضع سبابته مكان الجرح، ثم تأمل بقعة الدم عليها.

بكل نزق، مسح بطرف كمّه نصف المرآة، علّه يرى ذلك الجرح، انحنى إليها وحدّق فيها جيداً.

سرعان ما شهق بخوف وارتد إلى الخلف، وهو يرى في نصف المرآة صورةً دمويةً لمجزرةٍ جماعية.

أعيته الدهشة التي شلت ملامح وجهه لبرهة، أثناء تسارع خفقات قلبه.

صوت التلفاز أيقظه من هذه المفاجأة المريعة، بلع ريقه واستدار عن غير قصد، لينظر إليه من بعيد.

أمعن النظر فيه، شهق مجدداً وهو يلمح عن كثب.. هناك، في منتصف الشاشة.. جرح رقبته.

15. سيرة حاوية القمامة

مساء البارحة زاره صديقٌ عزيز، وهو مخرج مسرحي موهوب، وبعد بضعة كؤوس من النبيذ سأله عن مشاريعه المسرحية المستقبلية، فأجابه بحماسة:

ـ أنا الآن بصدد كتابة نص مسرحي مهم للغاية، أشرح فيه ـ دراماياً ـ سيرة حاوية القمامة.. منذ ولادتها حتى شنقها..

استغرب كثيراً من مشروع صديقه هذا، وقبل أن يناقشه بكنّهه، أردف له الصديق وقد ارتفعت حرارة حماسته:

ـ وبعد كتابته سأقوم بإخراجه.. وعرضه للناس على الخشبة...

سأله مجدداً: ولمن ستعطي دور حاوية القمامة؟..

استنشق نفساً عميقاً، وهو يعبّ من سيجارة الحمراء الطويلة، ثم صرخ باسم الممثل الذي ينوي أن يسند له دور حاوية القمامة.

شهق.. فالاسم ليس اسم ممثل، وإنما هو اسم زعيم البلاد.

16. الكمان

في ليلةٍ مظلمة لا قمر فيها، ثلة رجالٍ يرتدون ثياباً داكنة، حاصروا قصراً عتيقاً ثم ألقوا القبض على كمان قديم.. مشهور بموسيقاه العذبة منذ عقود.

جرّوه من أوتاره ككلب إلى أحد أقبيتهم، ليعذبوه بوحشية أياماً عدة، حتى اعترف بكل ما لقنوه إياه.

هذا الصباح.. أخبر المحقق سيّده ـ بفخر ـ أن عملية تربية الكمان قد تمت بنجاح، لكن السيد لم يصدّق.

ابتسم المحقق بخبث ونادى داكني اللون، فجلبوا الكمان من القبو، أدخلوه ورموه على كرسي أمام المكتب.

وحتى يصدّق هذا السيد، نظر المحقق إلى الكمان الشاحب، ثم أشار له بسبابته أن يبدأ.

عندئذٍ.. شرع الكمان مقهوراً، يعزف لحن النشيد العام، للحزب الحاكم في البلاد.

17. تذكار

كانت نائمة في منتصف الشارع.

صوت المؤذن أيقظها، فتذكرت واجبها الديني المقدس.

تلك الدبابة اللطيفة جداً، التي يشعّ من وجهها نورٌ بهيّ، دخلت إلى المسجد بهدوء.. وثمة إيمانٌ عميقٌ في قلبها الطاهر يقودها لتصلي صلاة الفجر.

توضأت بدماء المصلين، ثم سجدت بخشوع لله رغم بدانتها، بمساعدةٍ كريمة من أشلاء من حولها.

وبعد أن انتهت من صلاتها، خرجت من المسجد، والسكينة تخيّم على روحها النقية.

فقط للذكرى.. أخذت معها المئذنة.

18. مرض

شعر ضابطٌ يمتلك حاجبين سميكين، وكأنهما شارعان تمّ تزفيتهما للتو، بألم داخل رأسه، فذهب إلى أكثر من طبيب، وجرّب أكثر من دواء، لكن الألم كان يزداد يوماً إثر يوم.

ذات مساءٍ، وبملامح وجهه الداكنة، أخرج من أخمص مسدسه رصاصتين.. ثم ابتلعهما كحبتي دواء مع كأس ماء.

بعد قليل.. بدأت آلام رأسه بالرحيل.

19. القديس

ذلك القديس العجوز المحشور بكل براءته، مع هالةٍ من النور حول رأسه، بين قضبان صورته العتيقة المعلقة على هذا الجدار.

كفكف دموعه وهو يرمق متألماً بعينيه الحزينتين هذا المنظر القاسي، الذي أدمى له قلبه خلال دقائق.

ثم، في لحظة جنون، وكأنه فقد عقله، التقط بيديه ثوبه الطويل.. وراح يرفعه حتى خصره، ثم شرع بالتبول غضباً من قماش صورته إلى الخارج، وكأن صورته على الجدار مجرد نافورة.

ثمة جنديٌّ داكن الملامح منحنياً أسفل الصورة تماماً.. بلّل البول خوذته، ثم وجهه، ثم بزته، ثم مؤخرته.

لكنه لم ينتبه أبداً، فقد كان منهمكاً بفكّ تلك الساعات الجلدية المتواضعة، عن معاصم الأطفال، الذين قتلهم منذ قليل.

20. وظيفة جديدة

آنذاك.. انطلت عليه تلك الخدعة، فذهب إلى دائرة الشؤون والعمل مرتدياً كل ما لديه من تفاؤل، سجّل اسمه وشهادته حتى تعثر له الدولة على وظيفة شريفة ومحترمة.

وكان أن مرّ على تسجيله عدة سنوات، فيئس ونسي الموضوع، ككل أبناء جيله.

لكن، البارحة اتصلت به موظفة الشؤون، وقالت له بصوتها الذي يشبه نعيق الغربان:

ـ أخي المواطن.. ألف مبروك، لقد وصل الدور بحسب تسلسل التسجيل إلى اسمك، وقد عثرنا لك على وظيفةٍ محترمة..

قاطعها بسعادة: وما هي الوظيفة؟

أجابته: درع بشري..

شهق متعجباً: درع بشري!!..

ـ نعم.. درع بشري، يوجد بعض الأحياء والقرى فيها قليل من الأوساخ، وعليك أنت وبعض الموظفين الآخرين، أن تمشوا أمام الجهات المختصة عند دخولها تلك الأماكن لتنظيفها..

ـ مممم.. وكم يبلغ الراتب شهرياً؟

ـ خمس عشرة ألف طلقة، تقبضها شهرياً بصدرك..

ـ مممم.. أعتذر يا سيدتي، فأنا أحتاج على الأقل إلى ثلاثين ألف طلقة، حتى أعيش موتاً جيداً، يكون فوق مستوى خط الكفر..

ثم خبط السماعة بغضب على الهاتف.

21. مصرع تمثال

وكأي فزاعةٍ مهمتها إخافة الطيور، كان هذا التمثال الشاهق منتصباً في منتصف حديقة الجامعة، بملامحه القاسية وعينيه الحجريتين ذات النظرات التي تفوح منهما الريبة.

وكعادته منذ أن نُحت من عقود، كان يرمق ـ بشكل مخيف ـ الطلاب المتناثرين ببن أشجار الحديقة مع صديقاتهم، ليجفل لهم قلوبهم، فيقمع رغبتها باقتراف قبلة، تُسرق خلسةً هنا أو هناك.

لعدّة أجيال، آلاف القبلات شُنقت في خيال الطلاب بسبب هذا التمثال.

هذا الصباح.. ثمة طالبٌ جلس مع صديقته على العشب خلف شجرة، عطرها أدمى روحه، فنسي في لحظة طيشٍ كل تماثيل الأرض، وانحنى إليها ليسرق من جبينها قبلة. عندئذٍ.. مال التمثال قليلاً.

ذلك الطائش انحنى ثانيةً مستغلاً دهشة صديقته، وخطف قبلةً أخرى من خدها.. فمال التمثال أكثر.

راق لقلبه طعم القبلات من أنوثتها، فانحنى مجدداً منتهزاً فرصة خجلها، ليقبّلها ـ هذه المرة ـ في شفتيها.

القبلة الثالثة كانت مثل رصاصة الرحمة، على إثرها هوى التمثال وسقط أرضاً، وتناثر حطامه على أكثر من جهة.

الطلاب الذين هم بين أشجار الحديقة مع قلوبهم، انتبهوا لسقوطه المدوي، فشهقوا بذهول.. ثم انخرطوا في قبلات طويلة ردت للحديقة روحها.

فقط وحده.. ذلك العصفور المشاغب، خطر في باله أن يتبول فوق رأس التمثال. وبعد أن فعلها، سال البول بين العين والأنف، فبدا وجه التمثال لمن ينظر إليه، وكأنه يبكي دموعاً غزيرة.

بقية العصافير حطّت على أغصان الأشجار، وهي تتنفس الصعداء، بعد تحليق مرير، استمر لعقودٍ طويلة.

22. إعلانات ذبابية

في يوم حار، ثمة جنديّ لا يحب الاستحمام.. شعر بالجوع، وهو منتصبٌ كشتيمةٍ بذيئة على حاجزه العسكري، فطارد ذبابة صغيرة إلى أن ألقى القبض عليها.. ثم ابتلعها بشهية.

لكنه... سرعان ما ندم كثيراً، لأن تلك الذبابة المشاغبة، صارت تطلع بين الفينة والأخرى إلى عقله لتمر ببطء خلف عينه، أثناء تحليقها داخل جسده، فتعكر عليه مسلسل تأمّل الهويات.

23. زيارة الواجب

بين الزنزانات ثمة تقاليد اجتماعية متوارثة منذ أقدم سجن.

فهذا الصباح اتفقت كل من الزنزانة الثالثة والزنزانة الخامسة على زيارة صديقتهما الزنزانة التاسعة، حتى تباركا لها بمناسبة سدّ نافذتها الضيقة من قبل السجانين.

في المساء ذهبتا إلى زيارتها وتهنئتها، ولأنه من المعيب بحق سمعة الزنزانات أن تباركا لصديقتهما بأيدٍ فارغة.. خصوصاً أن مناسبة حلول العتمة عليها، هي مناسبة عظيمة جداً.

لهذا، حملتا لصديقتهما علبة كرتونية بالية، ملفوفة ببقايا قميص عليه بقع دم، ومربوطة برباط غليظ لجزمةٍ عسكرية.

داخل العلبة.. كان هنالك ستة وعشرون سجيناً.. وجثة.

24. زيارة مؤلمة

تجول طويلاً بين الصفوف غير مصدّق لما يراه، فلعن في سرّه صاحب هذه الصور المعلقة بكثافة على الجدران.

تضايق كثيراً من الأشكال الوسخة للتلاميذ، كلهم ثيابهم رثة وأغلبهم منكوشو الشعر، وبعضهم لديه موهبة في الشتائم البذيئة، وهنالك من لديه جيش من القمل في رأسه، والقمامة منتشرة في كل الزواية.

غضب كثيراً من المعلمات اللواتي لا يُجدن شيئاً سوى ضرب التلاميذ بقسوة.

اتجه مسرعاً حانقاً إلى غرفة المديرة النحيلة ذات الأنف المعكوف، ليناقشها بهذه الأمور. فعثر عليها تمارس الجنس خلسة مع المستخدم البدين، خلف الباب، بشهقات مكبوتة.

بصق عليهما.. لكنهما لم يكترثا له مطلقاً.

ركض ليخرج من هذه المدرسة مقهوراً وكأنه يهرب من كابوس، ودمعته تسيل على خده.

مشى في الشارع المؤدي إلى المقبرة التي تبدو له الآن وكأنها حلمٌ وردي.

في سره شتم اسمه مع غصة مريرة.

كانت هذه الزيارة الأولى والأخيرة التي يقوم بها هذا الشهيد، إلى المدرسة التي تحمل اسمه.

25. مزهرية.. من مجزرة

هطلت القذائف كمطر غزير على ساحة القرية، حيث كان يقام فيها حفل زفاف متواضع.

هرول والده بخوف إلى الساحة ليبحث عن أمه، فلحقه طفلهما الصغير.

لم يعثر والده بين الجثث التي ذابت ملامح وجوه بعضها، على والدته.

أحد الجرحى طمأنه بأنه قد لمحها عن كثب تغادر الحفلة قبل القذائف ببضع دقائق.

الطفل كان ـ وبسعادة ـ يلهو بالتقاط الأيدي المقطوعة من بين الأشلاء البشرية وهو يظنها دمى، فجمع عدة أيدٍ.

صرخ عليه والده وهو يأمره بالرجوع حالاً إلى البيت، ثم وعده بأنه سيرجع إلى البيت بعد قليل، وأمه معه.

ركض الطفل وهو يحضن إلى صدره الأيدي المقطوعة.

في البيت، داخل غرفة الجلوس، التقط المزهرية عن الطاولة ورمى عنها الورود، ليدسّ فيها تلك الأيدي، ثم وضعها جانبه على الأريكة، وهو يتأملها ويبتسم ببلاهة.

تأخر والده ووالدته.. شعر بالنعاس.. تثاءب، ثم غفا جانب المزهرية.

بعد أن نام.. ثمة يدٌ من الأيدي في المزهرية، مالت إليه بهدوء لتمسح بحنان على شعره الناعم.

26. الطفل والحرب

بضع قذائف سقطت على الشارع الرئيسي في السوق، بعد برهة.. نهض الطفل من بين جثث القتلى وأجساد الجرحى، وهو يتألم.

ثم انتبه إلى أن يده كانت مقطوعة، فراح يبحث عنها بين فوضى الأشلاء البشرية، وهو يبكي بمرارة وألم، علّه يعثر عليها.

فجأةً.. عثر على يد أخرى مقطوعة، يبدو من شكلها أنها لجثة رجل متقدم بالسن.

التقطها الطفل ثم وضعها على معصمه، وتأملها لثوان ببلاهة.

سرعان ما راح يقفز بسعادة بين الجثث أمام الجرحى.. وهو يصرخ كمجنون: لقد كبرت.. لقد كبرت.. لقد كبرت..

27. ذات مشوار

كسرة الخبز اليابسة كانت تتمشى على الرصيف، وهي تتمايل وتدندن بلحن أغنيةٍ تحبها. سرعان ما شهقت وهي تلمح، مصادفة، في منتصف الرصيف، جثة طفلٍ صغير مرمية هنا.

أسرعت كسرة الخبز لتلتقط جثة الطفل، رفعتها إلى فمها وقبّلتها بهدوء، ومسحت بها على جبينها. ثم انحنت لتضع الجثة بلطف.. على الأرض جانب الجدار، وتابعت سيرها.

28. الوسام

زفر بحنق.. فهو منذ الصباح يتجول في أروقة الحديقة ينظر في وجوه الناس، لكن لا أحد لوّح له أو صرخ عليه.

لعن حظه، ثم جلس الفتى ماسح الأحذية على صندوقه الخشبي بانزعاج جانب نافورة الماء، وراح يرمق ببلاهة ذلك التمثال الضخم المنتصب منتصف الحديقة.

خطر في باله أن يلهو قليلاً لينقذ روحه من مشنقة الضجر.

نهض.. حمل صندوقه، ثم مشى إلى ذلك التمثال وهو يبتسم، جثا أمام رجليه الغليظتين..وانحنى إليهما، وشرع بتلميع هذين الحذاءين الإسمنتيين.

فجأةً.. عشرات الرجال بربطات عنق ووجوه باردة، اقتحموا الحديقة،

ثم تحلقوا حوله وهم يصفقون ويهتفون. وقف الفتى ماسح الأحذية مذهولاً.. فصافحوه بعنفوان، وأكثرهم بدانةً قلّده وسام الوطنية من الدرجة الأولى.

بعد ساعات.. استطاع أن ينسلّ من بينهم وآلات التصوير تلتقط لهم الصور التذكارية.

أسرع الفتى إلى سوق الخردة، وباع الوسام.

فرح كثيراً.. فسعر الوسام يساوي، تقريباً، تلميع ثلاثين حذاء.

29. تثاؤب

بعد منتصف الليل بقذيفتين.. تثاءبت حاوية القمامة.. ففتحت فمها على مصراعيه. عندئذٍ.. فاحت في عتمة الشارع، رائحة خطابٍ تاريخي.

30. توقيت

في السماء الشاحبة.. الطائرة الحربية الأولى سألت زميلتها، الطائرة الحربية الثانية: كم الساعة الآن؟ فأجابتها: نحن الآن في تمام المجزرة السادسة.

31. أم

هذه الأم المتشحة بالسواد، جلست إلى جوار القبر.. وهي تبكي بصمت، عبثت قليلاً بأزرار قميصها، أخرجت نهدها منه، وألصقت حلمته بشاهدة القبر، قبر رضيعها، الذي قُتل قنصاً في حضنها.. ذات شارع.

32. رياضة

استيقظ الزعيم وتمطى قليلاً، ثم نزل عن سريره ومشى إلى خزانته ليفتح بابها، ظلَّ لدقائق محتاراً يتأمل مجازره العديدة والمعلقة بها. التقط واحدة وارتداها على عجل، ثم خرج من قصره ليمارس الرياضة الصباحية في الهواء الطلق.

33. هوية

ثمة ذبابة حطّت بكسل على جبينه، لا هو تضايق منها ولا هي شعرت بغربة، وكأن جبينه قمامتها المفضلة. تابع هذا الجندي تأمل الهويات بملٍ على حاجزه العسكري، بينما الذبابة ترسم على جبينه بلعابها.. هويتها.

34. كابوس

هذا الكابوس ما عاد لديه القدرة على الاحتمال، وصدره يكاد يختنق عليه، ولم يعد يفصله عن الجنون سوى بضع ليالٍ، عندئذٍ.. وبنصيحة من كابوس آخر صديق له، ذهب إلى عيادة الطبيب النفسي علّه يعثر على دواءٍ يريحه من هذا الضابط الذي كان قد أصيب به منذ بداية الحرب.

35. بعد أحد الانفجارات

كان إبراهيم يمشي على الرصيف عندما دوى خلفه انفجارٌ هائل هزّ الشارع كله.

استدار مرتعباً وهو يلمح الجثث تتناثر على الإسفلت، ثم سقطت أمامه جثة، فشهق وهو يتأملها بهلع.

حاول أن ينحني ليلتقطها، فيحملها ويركض بها إلى أقرب مشفى، لكنه فشل. وكأنه تمثالٌ نحتته هذه المفاجأة القاسية.

أحدهم صرخ من بعيد: ابتعدوا.. يوجد لغمٌ آخر!

هرول الناس بكل الاتجاهات إلا هو.. أراد أن يركض، حاول.. لكنه عجز عن فعل ذلك. بعضهم انتبه له، فصرخوا عليه بأن يهرب، لكن جسده ما عاد يستجيب له أبداً.

الجثة المرمية أمامه، ضاقت ذرعاً به وصبرها نفد.

وقفت ثم التقطته لترميه على كتفها، وركضت به مبتعدة عن المكان.

36. تشكّل

قبل الحدود ببضعة تلالٍ ومنحدرات، انهمرت عليهم القذائف، فركض أولئك النازحون بصخب وخوف.

أمسك الأب يد طفله، وهرولا مع العشرات في هذه الفوضى البشرية.

القذائف قتلت بعضهم وجرحت بعضهم الآخر، لكن لا أحد انتبه لأحد في فوضى الرعب هذه.

بعد أن اجتازوا الحدود تنفسوا الصعداء.. ثم مشوا نحو ذلك المخيّم.

باستثناء هذا الطفل الذي عندما تخطى الحدود نظر إلى يمينه، فلم يشاهد من كل والده إلا يده الممسك بها.

تأمل الطفل يد والده المقطوعة، ضمها إلى صدره، ثم جلس على صخرةٍ جانب الأسلاك الشائكة.

ابتسم ببلاهة وهو يمعن نظره في البعيد، منتظراً قدوم أشلاء والده لتتّحد مع يده هذه فتعيد تشكيله.

تماماً.. مثلما كان يتشكّل (غرندايزر) في ذلك المسلسل الكرتوني.

37. الزوجة

كانت منحنية تكنس أرض الغرفة، غير آبهةٍ لصدى الرصاص القادم من بعيد، ألمٌ خاطف لمع في ظهرها فوقفت وتأوهت بصمت.

مصادفة وقعت عينها على صورة زوجها المتوفى منذ بضعة أسابيع، المعلقة على الجدار.

خفق قلبها بغموضٍ غريب، تأملت صورته بكثير من الاستغراب.

رغم أنها كل يوم تتأملها لساعات.. لكن في هذه اللحظة أحست وكأن زوجها يبتسم، وليس أي ابتسامة.

إنما هي ذاتها تلك الابتسامة القديمة، التي كانت ترتسم على وجهه قبل أن ينحني إليها، ليسرق على غفلةٍ منها قبلة سريعة ورقيقة أيام خطوبتهما.

أرادت الزوجة أن تمعن النظر في الصورة أكثر، وقد أعيتها الدهشة.

فجأة.. قنبلة تقتحم النافذة وتنفجر خلف الزوجة فتحوّلها إلى أشلاء.

بعد برهة..

وكان دمها قد تخثر على البلاط، نهضت وجمعت أشلاءها، ثم صعدت بهدوءٍ إلى صورة زوجها، دخلتها..

حضنا بعضهما.. وشرعا بقبلةٍ طويلة.

38. انتحار

لدقائق وهي تركض مرتعبة في أزقة حارتها، وبضعة جنود يطاردونها مع صخب ضحكاتهم.

كان بإمكانهم قتلها بطلقة، كما فعلوا مع أهلها وبقية سكان هذا الحي الفقير، لكنهم أحبوا أن يتسلوا قليلاً بجسدها الجميل.

دخلت الصبية بسرعة إلى بناء من عدة طوابق، فتقافزوا خلفها على السلالم كقرودٍ بشعة.

عندما وصلت إلى السطح، وقفت على حافته، وقبل أن يصلوا إليها رمت بنفسها من الأعلى.

استغرب الجنود كثيراً ومطّوا شفاههم متعجبين.. لأنها عندما ارتطمت بالأرض انكسرت إلى مئات القطع الزجاجية الملونة.. لتتناثر هنا وهناك، وكأن التي انتحرت ليست صبية، وإنما مزهرية.

39. ذلك المتوحش

خرج بكل بشاعته من قصره المهيب كوحش بدائي.. وثمة اشتياقٌ غير طبيعي للّحم البشري يفتك بغرائزه.

ولأيام تجوّل في أحياء المدينة وشوارعها ليلتهم بشراسة كل الناس، الرجال والنساء.. وحتى الأطفال والشيوخ.

عندما انتهى..تجشّأ، ثم جلس أسفل شجرة حيث شرب كأس شاي مع سيجارة، وهو يداعب بكفّه بطنه المنتفخ.

نهض ومشى بتثاقل كمخمور، فتعثر مصادفة بحجر وسقط في بئر عميقة.

في قاعها.. تحامل على جروحه وآلامه، ثم وقف في العتمة، وظلَّ وقتاً طويلاً يصرخ مستغيثاً.. لعل أحد المارين عن قرب يسمعه فينقذه.

لكن.. لا أحد ردَّ عليه.

ثم تذكر أن كل الناس، هم الآن متناثرون جثثاً في عتمة معدته. صمت بخيبة، وراح يستسلم لعتمة هذه البئر العميقة، ببطء.. وإلى الأبد.

40. غبار على الخيال

كانت الحرب كعادتها اليومية، تمارس قذائفها هذه الليلة على مقربة من غرفته.

لم يأبه أبداً لضجيج الانفجارات، وإنما ظلَّ لساعات يتأمل بلا مبالاة هذا الغبار المتراكم منذ أشهر على أثاث غرفته، وهو يدخن بشراهة.. شعر بالملل فالتقط علبة سردين، فتحها والتهمها ببطء بغير شهية.

عندما انتهى، أشعل سيجارة وعبّ منها بعمق.

أثناء النصف الأول من سيجارته، كان يرمق بصمت علبة السردين الفارغة، على سطح طاولته. تخيّلها التابوت المناسب لجثته، فابتسم ببلاهة.

أثناء النصف الثاني من سيجارته، علبة السردين الفارغة تأملته بصمت، فتخيّلته الجثة المناسبة لفراغها الداخلي، عندئذٍ.. هي أيضاً.. ابتسمت ببلاهة.

41. الأم

عندما ناولها صحن الحلوى، سألته بغضب: هل أخذت للأولاد صحن حلوى؟.. أجابها بـ: (نعم). فابتسمت وأخذت منه الصحن.

يوم أهداها حذاءً جديداً، سألته بغضب: هل جلبت للأولاد أحذية جديدة؟.. أجابها بـ: (نعم). فابتسمت وأخذت منه الحذاء.

عندما اشترى لها فستاناً جميلاً، سألته بغضب: هل اشتريت ثياباً للأولاد؟.. أجابها بـ: (نعم). فابتسمت وأخذت منه الفستان.

منذ بضع ليالٍ كانت نائمة، فاقترب منها ليغطيها جيداً باللحاف حتى لا تبرد، فتمتمت له وهي شبه نائمة: هل غطيت الأولاد؟.. أجابها بـ: (نعم). فغطّت في نومٍ عميق وهي مرتاحة الروح.

الآن.. انحنى إليها وهو يبكي، قبّلها ثم همس في أذنها: ستظلين حيةً في قلبي إلى الأبد. فهمست له بغضب: هل الأولاد ما يزالون أحياء؟.. أجابها بـ: (نعم). عندئذٍ ابتسمت ابتسامةً شاحبة، وتابعت موتها.

هي التي كانت وحدها فقط من قُتل، بسبب تلك القذيفة التي هبطت على بيتهم منذ ساعات قليلة.

42. خيبة

ثلاثة أشهر انقضت منذ أن اعتقل زوجها، اشتاقت له كثيراً، وحتى هذه اللحظة لم يصلها أي خبر عن مصيره. جلست على الأريكة وحزنها يعصر قلبها، التقطت جهاز التحكم وأشعلت التلفاز، ثم راحت تتجول بين القنوات الفضائية. على القناة الأولى، شاهدت أغنية حزينة وقديمة، تحبها جداً.. فنهضت وأسرعت لتقفز عبر الشاشة إلى تلك الأغنية، لتغنيها بشجن وملامح زوجها تتراءى لها من بين الآلات الموسيقية.

انتهت الأغنية فرجعت الزوجة من الشاشة إلى أريكتها وهي تتنهد، رفعت جهاز التحكم وغيّرت إلى قناة ثانية. على القناة الثانية شاهدت حلقة من مسلسل عاطفي، فأسرعت لتقفز مجدداً عبر الشاشة إلى ذلك المسلسل، لتكمل بقية مشاهده الدرامية وهي تحضن زوجها إلى صدرها.

انتهى المسلسل فطلعت من الشاشة ومشت إلى الأريكة وثمة دمعة في عينها.

انتقلت إلى قناة ثالثة، كانت تبث أذان العصر من مسجدٍ ما، فأسرعت إلى الشاشة مرة أخرى، و قفزت من خلالها إلى ذلك المسجد، حيث توضأت وصلت كثيراً لله، على أمل أن يعيد لها زوجها.

عندما انتهت من صلاتها عادت من الشاشة إلى أريكتها بوهن، ثم انتقلت إلى قناة رابعة.

القناة الرابعة كانت إخبارية، شهقت بخوف الزوجة وهي تشاهد فيديو مصوراً بشكل رديء لمجموعة رجال قساة يعذبون بوحشية رجلاً مكبّلاً بالحبال.

آلاف السكاكين انغرست في قلبها وهي تلمح وجه ذلك الرجل المكبّل، إنه زوجها نفسه، ودون وعي ركضت وهي تنوي أن تقفز عبر الشاشة لتحمي جسد زوجها بجسدها من سياطهم القاسية.

في اللحظة ذاتها.. انقطعت الكهرباء، عندئذٍ ارتطم جسدها بالشاشة المظلمة للتلفاز، ثم سقطت أرضاً.

43. أمنية قديمة

اعتقلوه من الشارع مع عشرات الشبان بشكل عشوائي، وقادوهم إلى مدرسة قريبة كانوا قد جعلوها معسكراً للاعتقال، ثم رموهم في أحد الصفوف.

ابتسم هذا الشاب في سره، فقد كانت هذه مدرسته عندما كان طفلاً، وأيضاً.. كان هذا الصف صفه منذ أكثر من عقدين.

الكثير من الذكريات القديمة استيقظت داخل رأسه بسبب هذا المكان.

ثمة ذكرى توقف عندها.. تذكر أنه ذات صباح عندما كان طفلاً، نحت بمسمار عبارة ما على الجدار وكان يتأملها كلما جلس في مقعده.. لكنه لم يتذكر الآن كلمات تلك العبارة.

مشى بفضول إلى تلك الزاوية في الصف، جثا على ركبتيه وراح يفتش عنها.. إلى أن عثر عليها رغم كل تلك السنوات، لكن بوضوح أقل من السابق.. وبصوت منخفض قرأها: (عندما أكبُر سأصير شهيداً).

في اللحظة ذاتها، اقتحم الجنود الصف، ثم فتحوا نار بنادقهم على الشبان.

44. تحوّل

الثورة التي جاءت في ذلك الربيع، أعادت إلى روحها كل تلك الألوان القديمة، التي كانت قد هجرتها منذ سنوات، لترجع إلى ممارسة هوايتها في رسم اللوحات.

زوجها البدين تضايق كثيراً منها ومن لوحاتها، التي بدأت بالتكاثر مع ازدياد عدد المظاهرات.

ولوحة إثر لوحة.. كان غضبه يزداد في صدره، إلى أن انفجر غيظاً منها في هذه الليلة.. فحطم كل لوحاتها في نوبة جنونٍ شرسة، ثم طردها من المنزل بأن رماها إلى الخارج.

نهضت عن الرصيف في عتمة الليل، لم تهتم كثيراً، مسحت بهدوء عن خدّها دمعتها اليتيمة.. ثم مشت حافية في الشوارع. لكنها لم تنتبه إلى أنها، بعد شارعين، قد تحوّلت إلى لافتة.

45. ابتسامات شاحبة.. أثناء الضباب

هذا الضباب الكثيف للغاز الكيماوي، تسلل بخفة في عتمة الليل لينتشر بثقة في أرجاء هذا البيت.

العائلات التي كانت نائمة هنا، استيقظت على صدى سعالها، وعندما انتبهت لهذا الضباب.. ركضت مذعورة لتخرج من البيت بفوضى بشرية عارمة.

هذه الطفلة.. وحدها فقط، لم تخرج.. إنما ظلّت لدقائق تبحث بخوف عن صديقتها الحلوة، تلك الدمية العزيزة على قلبها. وعندما عثرت عليها، كانت قواها قد خارت.. فحضنت دميتها إلى صدرها واستلقت على سريرها وهي تختنق ببطء.

فجأةً.. اقتحم الغرفة طبيب ومعه بعض المتطوعين.. على وجوههم كمامات بيضاء. أسرع إليها وهو يجهز إبرةً ليحقنها بها علّه ينقذها.

عندما انحنى إليها.. خطفت الطفلة من يده تلك الإبرة، ثم التفتت بوهن لتغرسها بلطفٍ في ساعد دميتها، حيث حقنتها إياها ببطء حتى تنقذها، وهي تتأمل بصعوبة وجه دميتها وتبتسم لها باطمئنان ابتسامتها الشاحبة الأخيرة. دميتها أيضاً.. تأملتها بصعوبة، وهي تبتسم لها ابتسامتها الشاحبة الأخيرة.

46. إبادة الخيال

عادةً، هو يشاهدها فقط في خياله.. لكنه الآن، بمجرد أن تثاءب.. أرواح أجداده من الموتى، دخلت غرفته وعلى وجوهها النورانية أقنعة واقية من (الكيماوي)، أسرعت إليه لتهمس له بخوف:

ـ نتوسل إليك.. قد يقصفوننا هذه الليلة بالكيماوي وأنت نائم، الليل هو الوقت المفضل لهواياتهم الكيماوية.. خيالك هو المكان الوحيد لنا في هذا الكون.. لهذا، قبل أن تنام.. ضع تحت وسادتك هذه الليلة صورة حبيبتك.. و عدة حقن من الأتروبين.. الكيماوي يقتل الخيال أيضاً.

عندئذٍ تنهد خياله، ثم أجهش ببكاءٍ مرير.

47. البيانو

في عتمة غرفة الصالون أجهش هذا البيانو ببكاءٍ مرير وخافت، ففي المساء كان خطيب صاحبته قد أرهقه كثيراً وهو يعبث بأصابعه الخشنة بمفاتيحه.

مرت بجانبه لمى مصادفة، فانتبهت لبكائه، جلست أمامه مستغربةً،

فهذه أول مرة منذ طفولتها تسمعه يبكي، داعبت بحنان مفاتيحه ثم سألته عن سبب دموع.

صرخ البيانو في وجهها مقهوراً: «أبعدي عني ملازمك الأول حتى لا أنتحر».. هزت رأسها وهي تبتسم له ثم همست بلطف: تصبح على خير.. وذهبت إلى غرفتها لتنام.

بعد مساءين، جاء خطيبها لزيارتهم مرتدياً ثيابه الرسمية الداكنة، غصّ وهو يقضم التفاحة بشراهة، عندما قالت له لمى من بين والديها: أعتذر.. لا أستطيع أن أتزوجك.. فأنا مرتبطة..

وقف ليصرخ بحنق ورذاذ لعابه يتطاير عن فمه: ومن يجرؤ على الارتباط بك والجميع يعرف أنك ملكٌ لي؟..

بثقة وهدوء أشارت له لمى إلى تلك الزاوية، استدار الملازم أول فشاهد البيانو.

عندئذٍ.. ولأول مرة في حياته.. ودون أصابع أحد، راح البيانو يعزف موسيقا صاخبة تشبه كثيراً قهقهات ساخرة.

عضّ الملازم أول على شفته السفلى بحقد، ووجهه يتلون بلون الكراهية الغامق.. ثم انفجر أمامهم ـ من شدة الغضب ـ ليتناثر إلى مئات الحشرات الصغيرة والبشعة.

هذه الحشرات التي سرعان ما تجمعت إلى بعضها في سربٍ صغير، عبرت من النافذة، ثم طارت إلى أقرب حاوية.

48. سنرميهم في البحر

صرخ عبدو صاحب الخريف التاسع بنزق: سنرميهم في البحر..

الشيخ أبو أحمد صاح في خطبة الجمعة من فوق المنبر بغضب: سنرميهم في البحر..

الحاجة خديجة تمتمت بحنق وهي تعدّ طعام الغداء: سنرميهم في البحر..

زوجها أبو القاسم القادم من الحقل للتو، دلف إلى البيت وهو يقول بثقة: عليّ الطلاق سنرميهم في البحر..

أما ماجد فقد كتب هذه العبارة مع خطيبته سعاد على حائط بيت جدهم، ففرح الجد.

في المساء.. ثغت الطفلة فاطمة وهي تحبو: سنلميهم في البحل..

جاء الليل فنام الجميع.

لكن.. بعد منتصف الليل استيقظوا بهلع على أصوات قهقهات صاخبة، فوجدوا أنفسهم يغرقون في المحيط.

49. أوسمة

انتصب هذا العسكري كرمح في المؤتمر الصحفي ـ وثمة ابتسامةٌ صفراء تلهو على ملامح وجهه ـ أمام عشرات المكروفونات وآلات التصوير ـ وأسهب لهم بشرح معاني الانتصار الباهر.

مصورٌ مشاغب خطر في باله أن يقرّب عدسة آلة تصويره الحديثة من صدر العسكري، ليتأمل بوضوح عشرات الأوسمة البراقة، والمعلقة على صدر هذا العسكري، وكانت قد أغوته ألوانها.

المشاغب راح يقرب الصورة أكثر فأكثر إلى أن استطاع التمييز بين حدود هذه الأوسمة.

عندئذٍ.. شهق بخوف وهو يرتد عن آلة التصوير بفزع، فبين حدود هذه الأوسمة.. كانت مئات بل آلاف الجثث.. متكومة بعضها فوق بعض بهدوء وصمت.

50. الرجوع إلى الرقص

وقفت الملكة أمام مرآتها وسألتها بغرور: هل هنالك من هي أجمل مني؟..

شهقت متعجبة من جواب مرآتها الذي تغيّر الآن بعد أن ظلَّ نفسه زمناً طويلاً: نعم.. هنالك من هي أجمل منك يا سيدتي..

كادت أن تنفجر غيظاً، فسألتها بحقد: من هي؟! أرني صورتها..

عندئذٍ.. وكأن زجاجها شاشة تلفاز، راحت المرآة تبث لها نقلاً حياً لمظاهرة هائلة لحشودٍ من الفقراء وهم في الشوارع، يشتمون كل شيء، يكسرون كل شيء، يحرقون كل شيء.

همست لها مرآتها بثقة: هذه المظاهرة أجمل منك يا سيدتي..

لم تحتمل الملكة وقاحة مرآتها، فقذفتها بكأس ذهبية تشرب منها الماء. تحطم كل زجاجها، وتحوّلت المرآة إلى فوهة فارغة.

فجأةً.. قفز من هذه الفوهة المتظاهرون.

قتلوا الملكة، ثم عثروا على الملك أسفل سريره فقتلوه أيضاً رغم توسلاته، وأشعلوا النار في كل الصالات والغرف والستائر بجنونهم الجميل.

في بهو القصر.. الطفل بائع الكعك راح يعزف لهم على البيانو كيفما اتفق، ليرقصوا بفرح كثنائيات منسجمة مع بعضها بثيابهم الرثة كما النبلاء، غير آبهين للنيران التي أشعلوها.

رقصوا رقصتهم المفضلة، تلك التي حُرموا منها لعقودٍ مريرة.

51. لماذا

طلعت روح كلب مختار القرية نحو خالقها، فخرجت القرية رجالها مع نسائها.. أطفالها وعجائزها.

وبمشاركة كريمة من بعض الحيوانات الأليفة، مشكّلين جنازة مهيبة.. داعين الله أن يتغمده برحمته الواسعة، ثم دفن أسفل تراب سقته دموعهم.

انقضت بضعة أيام.. ثم كان أن طلعت روح مختار القرية إلى خالقها على الطريق ذاته، لكن.. لا أحد خرج يلوّح لها مودعاً.

52. زعيم

في الصباح يستيقظ ولا يغسل وجهه، يرتدي عباءته الفضفاضة، وعلى خصره يعلق سيفاً كان لجده في عصر آخر، ثم يختار من الإسطبل جواداً سريعاً.

يخرج لوداعه كل أهل الحي، مع باقات زهورهم مثيرين الضجة والغبار. وينطلق لتطارده الهتافات والأغاني المليئة بالشتائم الموجهة للأعداء.

يسرع الجواد.. بعد دقائق يصل إلى مؤسسة الكهرباء، حيث سيدفع حساب الفاتورة، ثم يرجع إلى الحي.

53. خوف

في الغرفة المخصصة للاجتماعات ذات القرارات المصيرية، المروحة المعلقة بأعلى السقف، كانت نسائمها الباردة تتبع منها، لتصطدم بوجوه الحاضرين المكفهرة، فترجع إليها.. مذعورة.

54. هزائم

تسلل إليه الملل، فطلع نيرون من قصره وأشعل الحرائق في روما.

في مكان آخر، ينهض نيرون آخر ويحرق روما أخرى.

وفي مكان شبيه بالسابق، نيرون شبيه بالسابق، يقفز عن سريره ليحرق روما شبيهة بالسابقة.

منذ ذلك الوقت، وكل يوم يخرج لنا نيرون جديد، يعاني من الملل، ويحرق لنا روما..

كنا قد انتهينا من بنائها منذ ثوان.

55. ألوان العيون

كان يرسم لوحات تشبه الشوارع المتناثرة داخل ذاكرته، أصدقاؤه الطيبون أجبروه على تطليق هذه العادة، فأقلع عن الرسم.

ذات يوم جاءت الحرب وصنعت قبوراً لكل الأصدقاء، أصبح وحيداً وأراد أن يرجع إلى الرسم، لكن علب الألوان كان ثمنها مرتفعاً.

ذهب إلى المقبرة ونبش قبور الأصدقاء وكأنه لص، بعد أن استأذنهم، أخذ عيونهم، ثم عاد إلى غرفته.

نثر العيون على طاولةٍ عن يمينه، نشر الأوراق البيضاء أمامه.

وصار يمسح بالفرشاة على كل عين، ليحصل على لون.. ثم يرسم.. ويرسم.. ويرسم..

56. موت غير طبيعي

راودته أمنية فحواها أن يهدي قريته بئراً، نهض ماجد والتقط فأساً ثم حفر في الأرض، فظهرت له جمجمة.

انتقل إلى موقع ثان وحفر، فطلعت له جمجمة ثانية، استعاذ بالله وقفز إلى بقعة أخرى.

لكنه شتم حظه بسب الجمجمة الثالثة.

تجوّل ماجد مع فأسه في كل الجهات، يصنع الحفر كمشاريع آبار، لكن الجماجم كانت دائماً تعطل له مشاريعه.

وصل مصادفة إلى أرض جرداء، عليها سورٌ منخفض.. يلعب داخلها الفراغ.

بصق بين كفيه وأخذ يحفر، اقترب المساء وبدأ الماء يلامس فم الفأس وهو مندهش.

على حين غرة.. أحاط به رجال الشرطة، ركلوه مع فأسه إلى الخارج.. وردموا البئر.

أكثرهم لطفاً باح له بالسر:

ـ لقد اعتديت على الأملاك العامة، هذه الأرض تبرعت بها الدولة منذ سنوات للناس بأن جعلتها مقبرة للموتى.

57. كسوف

في عصر ما، كان الغضب قد بلغ بالقمر درجة لا تحتمل، السبب: شبان كثر، أغبياء للغاية، عبر التاريخ أطلقوا اسمه على فتيات قبيحات جداً، والآن قرر أن يثأر بوحي من انزعاجه.

لهذا أثناء سيره في الفضاء، عندما صار القمر في منتصف الطريق بين الشمس و الأرض توقف.

غرق الكوكب الأخضر في العتمة، كل الشعوب ارتدت السواد وصارت تسبح في ليل طويل.

فقط القادة.. لم يحزنوا، إنما بعثوا برسائل الشكر إلى القمر، لتضامنه مع قضاياهم.

58. شاهد عيان من هناك

بعد منتصف شباط، بكثير من البصاق أطلقوا سراحه، قبل أن يتم

السنة السادسة عشرة من السجن. وذلك لأنه اقترف ذات يوم مجموعة أوراق لم ترق لمزاجهم الداكن.

وصل ظهراً إلى بيته، فلم تصدّق زوجته رجوعه للوهلة الأولى، سرعان ما حاصرته بعاصفة من دموع سعادتها وزغاريدها.

في الليل تقاطرت ثلة نساء شاحبات بخطواتهن الخائفة إلى منزله تحت جنح الظلام، وفي غرفة الجلوس تناثرن حوله مع همسهن الخافت لملامحهن التي أرهقها الانتظار.

ـ هل شاهدت زوجي؟..
ـ أكان أخي معك؟..
ـ هل ابني حيّ؟..
ـ أتعرفت على أبي؟..
ـ ألديك معلومات عن خطيبي؟..
ـ متى سيخرج ابن عمي؟..
ـ أما زال ابن خالتي حياً؟..

أسئلة من قلق حاصرته في ليلته الأولى، لنساء متشحات بالحزن والسواد.. فابتسم لهنّ وهو يهز برأسه على كل أسئلتهن، ثم خرجن من عنده وفي صدر كل واحدة منهن أمل خافت يشتعل كشمعة.

بعد ذهابهن أجهش ببكاءٍ مرير، فحضنته زوجته إلى صدرها بحنان، أخبرها وهو يشهق أن كل سنوات سجنه أمضاها في زنزانة منفردة تحت الأرض، لا هو شاهد أحد.. ولا أحد شاهده، طيلة ستة عشر عاماً.

59. ليلة اختفاء الزعيم من كل المرايا

في هذه البلاد ثمة شيءٌ غريب يحدث منذ عقود، حتى صار بالنسبة لسكانها مع توالي الأجيال شيئاً اعتيادياً.

زعيم البلاد موجود في كل المرايا المنزلية الكبيرة والمتوسطة، وأيضاً في المرايا الصغيرة داخل الحقائب.

كلما مشط أحدهم شعره أمام مرآته، شاهد فيها الزعيم يمشط شعره بالتسريحة ذاتها.

آخر يحلق ذقنه فيرى في المرآة الزعيم يحلق ذقنه. رجلٌ ما يعقد ربطة عنقه، الزعيم كذلك وفي المرآة نفسها يعقد ربطة عنقه. زوجة تلوّن وجهها بألوان مكياجها، الزعيم في مرآتها يلوّن وجهه بألوان مكياجها. مراهقة تشد فستانها، بطيش أنثوي، على جسدها، وتستدير حتى تتأكد من أنها مغرية، ثم تتأمل أرداف الزعيم على زجاج مرآتها.

مرة.. ذبابة كانت تحلق أمام المرآة بسعادة، فلمحت الزعيم يحلق داخلها بسعادة أيضاً.

في شتاءٍ قديم، أراد أحد المخمورين أن يقتل الزعيم، وقف أمام مرآته وهو يترنح ثم أطلق النار على رأسه ليسقط ميتاً، الزعيم في المرآة ذاتها أطلق النار على رأسه وسقط منها ميتاً.. لكنه ظلَّ حياً في بقية مرايا البلاد.

هذه الليلة وإثر وعكة صحية غامضة، حشرج الزعيم قليلاً في سريره ثم مات.

انتشر خبر موته همساً في كل البلاد، لم يصدّق الناس الخبر، فتسللوا بحذر إلى المرايا في بيوتهم ليتأملوا وجوههم وهم يشهقون مندهشين.

بعضهم مسح بكفه زجاج مرآته غير مصدّق، وبعضهم الآخر مسح بكفه على وجهه غير مصدّق. سرعان ما ابتسموا.. نظروا طويلاً في المرايا وهم يكتشفون بفرح للمرة الأولى ملامح وجوههم.

ملامح وجوههم التي حرموا منها لعقودٍ مريرة.

60. من أسرار سريري

ـ 1 ـ

إثر كل ملخص إخباري مقتضب لمجزرة كبيرة.. ثمة سريرٌ يحلو له أن يصغي جيداً لثرثرة الدموع المختبئة أسفل الوسادة.

ـ 2 ـ

عندما انسكب إبريق الشاي على سريري، احترقت كل أحلامي.

ـ 3 ـ

تربيتي العائلية المحترمة لا تسمح لي بمثل هذا الخيال السيئ، مؤدبٌ أنا.. مثلما تقول أمي لجاراتها، لكن سريري الحقير هو الذي يتخيّلك ـ دائماً ـ عارية.

ـ 4 ـ

في نزوح مؤقت، ثمة صديقٌ نام على سريري، وأنا على الأريكة أصغي طوال الليل لسعال سريري، معه حق.. هذا هو حال أي سرير يتغيّر عليه إنسانه.

ـ 5 ـ

في مغامرة طائشة، ثمة أنثى من مشتقات القمر، هاربة من مدرستها.. غفت قليلاً ـ كملاكٍ ـ على سريري. وبعد أن ذهبت وقت انصراف المدارس، رجعت إلى سريري ورميت جسدي عليه، سرعان ما ركلني بقسوة إلى الأريكة، وهو يصرخ بنزق حاد: اتركني قليلاً مع عطرها.

ـ 6 ـ

مرة، هددني سريري بأنه ينوي أن يشي بسري ليفضحني أمام أمي، توسلت إليه.. لكنه، عندما دخلت أمي غرفتي، قال لها: ابنك لا يدرس.. إنه، كل ليلة قبل أن ينام، يمارس.. القصة القصيرة.

ـ 7 ـ

في كل ليلةٍ يشاهد فيها سريري كابوساً، يتخبط قليلاً.. ثم يطرحني أرضاً.

ـ 8 ـ

في آخر سكرة، سقطت كأس العرق من يدي على سريري، أسرعت لأجلب قطعة قماش.. وعندما رجعت انتبهت له.. كان سريري يميل لليمين فاليسار، ثم لليمين فاليسار مثل أي مسطول إيديولوجياً.

ـ 9 ـ

وأنا مجرد خيبةٍ منتصبة في عادةٍ سرية، تمارسها القصص القصيرة في العتمة الباردة لليالي الشتوية. فينتشي سريري، بين بكاءين ولحاف.

ـ 10 ـ

عندما متُّ.. دفنت على عجل في قبر بارد، بعد جنازةٍ متواضعة مشت فيها كل قصصي وكانت سعيدة جداً.

في عتمة القبر، أحسست به أسفلي، تفاجأت.. همس لي سريري بكثير من الوحشة: هل ستزور تلك الأنثى.. قبرنا؟!

61. قبعة الاختفاء

عندما كنا مراهقين، سحرت خيالنا الطائش وأدمت مشاعرنا الهوجاء فكرة (قبعة الاختفاء). وكم تمنينا الحصول عليها، لنرتديها ونتسلل ـ على هيئة كائنٍ لا مرئي ـ إلى غرفة بنت الجيران ليلاً، في شغبٍ حلوٍ، لنتأمل عن قرب أسرارها المدهشة.

الآن، وبعد أن كبرنا.. ما زلنا نحلم بـ (قبعة الاختفاء) فقط لنعبر بأمان، ذلك الحاجز العسكري الحقير.

62. على حاجزٍ للعتمة

على مدخل حارته ثمة حاجزٌ عسكري.. وقف في طابورٍ طويل ليخضع للتفتيش الروتيني المعتاد للداخلين والخارجين.

عندما فتشه العسكري بعد ساعات من الانتظار، عثر في جيبه على شمعة.. صفعه بقسوة ثم بصق عليه وهو يركله.

اتهمه مع بقية العساكر بمحاولة تهريب الضوء، ولم يطلقوا سراحه إلا بعد أن أجبروه على الهتاف بحياة العتمة.

63. إعدام ميداني لـ كيس بابا نويل

هذا المساء..

عناصر الجهات المختصة اعتقلوا بابا نويل وهو يحاول التسلل إلى حارتنا، وعندما فتشوا الكيس الكبير المرمي على كتفه، غضبوا جداً منه فضربوه بقسوة.. ثم أطلقوا نيران بنادقهم بغزارة على كيسه حتى تغيّر لونه.

بعد دقائق ركلوه مع كيسه بعيداً وهم يقهقهون.

هناك.. في العتمة، جلس بابا نويل وأخرج من أسفل معطفه زجاجة نبيذ، ليشربها ببطء. تنهد ونهض وهو يترنح، ثم رمى كيسه على كتفه، وتسلل إلى حارتنا مجدداً.

هذه المرة لم ينتبهوا له.

عندئذٍ.. راح بابا نويل يدخل بعض البيوت مثل طيف، وهو يبكي بصمت، وأمام كل سريرٍ كان يمد يده إلى كيسه، ثم يدس بهدوءٍ تحت وسادة كل أمٍ نائمة فقدت ابنها في هذه الحرب، طفلاً صغيراً وجميلاً.. قتل منذ قليل.

64. رعب

شهق برعب عندما توقف فجأة على الرصيف، ثم أحس أن علبةً معدنية سقطت عن جسده من تحت رئته اليسرى، لترتطم بالأرض بدويٍّ أزعج أذنيه.

عندئذٍ تأكد هذا الطالب الجامعي الفقير أن قلبه هو مجرد علبة سردين رخيصة.

انحنى على الرصيف ليلتقطها وهو يرمق باب المتحف الحربي بصمت.

65. وأخيراً.. نحن على شرفة

يا الله ما أحلى هذا المشوار!

منذ دقائق استطعت بصعوبة أن أحشر جسدي بين جابر ومناف، جابر الغليظ صرخ بحنق عليّ: (ارجع للخلف).. لم أكترث لكلامه، وإنما رميت برجليّ إلى الأسفل لتتأرجحا في الهواء الطلق مع بقية الشباب، وكأن الهواء ماءٌ ونحن على ضفة نهر.

هذا أكثر مما حلمنا به، حظنا جميل!

أمضينا عمرنا نحلم بأن نجلس مدة سيجارة واحدة فقط على مثل هذه الشرفة، لها إطلالة خلابة كهذه الإطلالة. مرت حياتنا بين البيوت الضيقة في الأحياء العشوائية، ولم يتحقق حلمنا.

الآن تحقق وجلسنا على شرفة أمام منظر طبيعي خلاب، وليس أي شرفة.. شرفة متحركة.

أحدنا صفق منتشياً بمرح، وآخر سألني عن سيجارة، مناف تمنى لو أن حبيبته هنا إلى جواره.

فجأةً توقف عن السير، التفتنا لننظر بعتب في وجه السائق. نحن الجثث الجالسة باسترخاءٍ جميل، على الكف العالية لهذه الجرّافة.

66. صور مسربة

منذ قليل خرجت من بيتي ومشيت إلى بيت جاري خليل، وأنا أنوي السهر عنده مع أركيلته.

طرقت بابه، ثم سمعت ابنته الصغيرة تقول من خلف الباب:

ـ من؟

ـ أنا عمو..

ـ من أنت؟

ـ أنا جاركم الصورة المسربة رقم (32).. أين أباكِ؟

ـ يا هلا عمو.. والله البابا ليس بالبيت... هو سهران عند جارنا الصورة المسربة رقم (109).

67. السوريون يعيدون كتابة الحكايات العالمية

ـ 1 ـ

بائعة الكبريت في الدانمرك، لم تمت من البرد، فأطفال درعا يرسلون لها سراً كل مساء أعواد الثقاب.

ـ 2 ـ

البحيرة التي كانت للبجع في ذاكرة بيانو تشايكوفسكي، سألت مرآتها: من أجمل مني؟ أجابتها المرآة بثقة: بحيرة الرقة التي هي في ذاكرة الربابة.. أجمل منك، وبكثير.

ـ 3 ـ

خريطة الكنز، هي ذاتها خريطة سورية.. (هكذا قال سيلفر لـ جيم).

ـ 4 ـ

الحورية التي رمت نفسها إلى البحر، لتنتحر لأن الأمير لم ينتبه لحبها له. أنقذها بحارة جبلة، لكن أهل كفرنبل خطفوها، وحوّلوها إلى لافتة جميلة.

ـ 5 ـ

في برنامج التضليل الإعلامي، أقسمت المذيعة برأس أمها، أن الطفل الحقير الذي صرخ أثناء مرور الموكب الملكي: (الملك عارٍ)، هو من مجاهدي أفغانستان، الذين تسللوا عبر الحدود.

ـ 6 ـ

في سورية... كسّارة البندق، لم تكن مهمتها طحن البندق. إنما، بين فكيها.. كانت تطحن الطائرات.

ـ 7 ـ

ريمي عثر على أمه الحقيقة، في مظاهرة.

ـ 8 ـ

لا يفقه شيئاً من حروف اللغة.. فاللغة كلها عند شرشبيل هي، حرف الثاء.

ـ 9 ـ

فقط في سورية، ليلى تأكل الذئب بلا ملح.. دون أي تدخل خارجي سافر.

ـ 10 ـ

الأميرة التي ظلت تطيل شعرها لسنوات في برجها العالي.. هي الآن ترمي بجدائلها إلى العالم الآخر، ليلتقطها الشهداء.. فيتسلقوها، حتى يصلوا إلى الحياة ثانية.

ـ 11 ـ

بياض الثلج بصقت.. ففرق في بصقتها سبعة شبيحة.

ـ 12 ـ

وقفتك المرعبة.. أضحكت كثيراً.. حذاء السندريلا.

ـ 13 ـ

فإن سررتم معنا، نأمل أن سنلتقي.. في جمهوريةٍ جديدة.

68. الذئب وليلى

بعد أن جلس على هذا الكرسي الشبيه بسريرٍ ضيق وفتح فمه بخجل، انحنى عليه الطبيب و تأمل التسوس الداكن الذي ينخر معظم أسنانه.. زفر ثم سأله: كم ليلى تأكل في اليوم؟..

ـ نصف واحدة.. فقط..

أجابه الذئب بحزن وهو يتألم بصمت.

لم يصدّقه الطبيب، فبحسب خبرته.. لا يمكن لنصف ليلى يومياً أن تسبب كل هذا التسوس.

مع هذا، شرع بمعالجة أسنان هذا الذئب بسرعة، لأن غرفة الانتظار في عيادته السنيّة، كانت مليئة بالذئاب الذين يضعون أكفهم على خدودهم.. ويتألمون بصمت..

69. مندسّ

لم يكن واحداً منا.. لكننا استنتجنا ذلك بعد أن حدث ما حدث..

كنا على طاولاتٍ متجاورة في المقهى، نلعب بمتعة لعبتنا المفضلة، لعبة (التمثيل الصامت).

كلنا، ثقافتنا السينمائية متميزة، وقد شاهدنا معاً خلال هذه السنوات الدراسية في الجامعة عشرات وعشرات الأفلام السينمائية، في الصالات أو داخل غرفنا الصغيرة في الأزقة العتيقة.

لهذا صرنا كلما اجتمعنا.. يقف أحدنا ليمثل أمام عيوننا بملامح وجهه وحركات أطرافه وجسده حتى يوحي لنا بكلمات ما.. نخمّنها نحن إلى أن نعرف اسم الفيلم الذي يمثل عنوانه دون كلام.

فجأةً دخل بيننا دون استئذان أو سلام، كل واحد منا ظنّ أنه صديق الآخر، ثم أشار لنا بأصابعه إلى أن عنوان الفيلم المفضل لديه يتكون من ثلاث كلمات، فابتسمنا له متحمسين.

فهمنا من ملامحه وحركاته أن أول كلمة من فيلمه هي (أنا).. بعدها استنتجنا أن الكلمة الثانية هي (جهة).. ثم عرفنا أن الكلمة الثالثة هي (مختصة).

شهقنا مندهشين.. (أنا جهة مختصة ؟!)، وتهامسنا مستغربين، لم يسبق لنا أن شاهدنا أو سمعنا بعنوان هذا الفيلم أبداً..

نظرنا إليه، فابتسم لنا بخبث، ثم التقط بسرعة مسدساً من تحت معطفه وأطلق علينا النار.

تناثرت جثثنا مع الكراسي على الأرض، فناجين قهوتنا قرأت على أرواحنا الفاتحة.

بعد أن متنا، جثثنا الباردة تبادلت الأسئلة القصيرة.. عندئذٍ استنتجنا أنه لم يكن صديق أحدٍ منا..

70. الجارة

جارتنا.. تلك الصبية الجميلة، اعتقلوا زوجها وبعد أسابيع قليلة أعادوه إليها جثةً مشوّهة من هول التعذيب.

دقّناه بصمت.. هي لم تهتم، وكأن شيئاً لم يحدث.. ثمة جنونٌ لوّث عقلها.

لا تزال تعتقد أنه على قيد الحياة، وقد يرجع إليها في أي لحظة.. لهذا صارت كلما رنّ جرس بيتها، تحمل طفلتها المشلولة وتسرع إلى الباب لتفتحه بفرحٍ عارم، ودائماً لا يكون الطارق زوجها.

رغم هذا لا تزال تعيش مع طفلتها المشلولة ذلك الفرح الذي يمتدُّ ـ على إثر رنين الجرس ـ من غرفة الجلوس حتى باب البيت.

أمي أخبرتني بهذه العادة الغريبة التي فرضها الجنون على عقل جارتنا.

وقتئذ قررت أن أرجع لممارسة تلك الهواية القديمة، التي كنت أمارسها بشغب في طفولتي. لهذا صرت كلّما دخلت أو خرجت من بنائنا، أقترب بحذرٍ من باب جارتنا، لأرنّ الجرس ثم أهرب بسرعة.

71. أمي.. عصابة إرهابية

منذ ساعتين اتصل بي الموت، وأخبرني بصوته الضبابي البارد أنه يريد زيارتي.. فأجبته بالموافقة وأنني أنتظره.. فرحت كثيراً، وأخيراً سأشاهد الموت شخصياً.. يا الله!.. كم هو جميل هذا الشيء، طبعاً.. أنا ولا مرة في حياتي شاهدت الموت شخصياً، إنما فقط كنت أشعر به.

أحسست بالخجل، لأنه ليس لدينا في البيت فواكه وحلوى تليق بمثل هذا الضيف الجميل.. يوجد فقط شاي وقهوة وشراب للسعال.

رغم فرحتي تساءلت مستغرباً: من أين جلب الموت رقم جوالي؟.. خمّنت في سرّي أن صديقي مازن هو من أعطى الموت رقم جوالي.

مازن الذي كان قد اختفى في ظروف غامضة من شوارع دمشق منذ عام. تخيّلت أن مازن المشاغب، هو الآن في العالم الآخر، يركب في باص

كبير ويرمي من النافذة خلسةً قصاصات ورقية عليها رقمي، وفي شارعٍ ما.. عثر الموت على قصاصة ورق واتصل بي.

تماماً مثلما كنت أفعل أيام المراهقة، حين كنت أرمي بقصاصات ورقية عليها رقم هاتف منزلي، ومقطع من أغنية لـ هاني شاكر، من نافذة الباص.. على أمل أن تعثر فتاةٌ جميلة على قصاصة.. فتتصل بي لتبدأ بيننا قصة حب و...

لكن.. لم يحدث هذا الشيء.. فقط، مرة واحدة، اتصل عامل التنظيفات وقال لوالدي غاضباً: رقمكم يلوّث الشوارع.. وهو السبب في نشوء ثقب طبقة الأوزون..

أتذكر يا مازن عندما كنا نمزج الجنّ بالكولا في مقصف الصحافة بالجامعة، لنشرب ونسكر ونحن نختلس النظر إلى الفتيات الجميلات؟..

أتذكر عندما ذهبنا إلى الـ.....

رنّ الجرس.. كم هو دقيقٌ في مواعيده صديقنا الموت!

أسرعت إلى الباب وفتحته، ثم شهقت وأنا أرى مازن أمامي. حضن كل منا الآخر باشتياق ونحن نضحك.. قلت له: يا خبيث.. فعلاً أنت تقلد صوته بشكل متقن.. بشرفي ظننت أن الذي تكلم معي هو الموت ذاته..

أدخلته إلى غرفتي وجلسنا، فجأةً.. دخلت أمي فعرفتها على مازن.

أمي غريبة الأطوار، منذ أن بدأت الحرب وسلوكها يزداد غرابة مع مرور الأيام. وأنا أُعرّفها على مازن، أدارت ظهرها وخرجت، حتى دون أن تسلم عليه.

اعتذرت منه وقلت: لا تزعل.. حقك عليّ.. إنها الشيخوخة وأمراضها..

ثم ذهبت إلى المطبخ وأعددت فنجاني قهوة.

وأنا راجع إلى غرفتي.. مررت من أمام باب غرفة الجلوس.. فسمعت

أمي تبكي وهي تقول لجارتنا: البارحة كان يتحدث مع ندى واليوم يتحدث مع مازن..

ـ وأين المشكلة؟!

سألتها جارتنا فأجابتها أمي: المشكلة أنه لا يوجد أحد في غرفته.. لا البارحة ولا اليوم.. إنه يتحدث مع أصدقائه الذين قتلوا..

سقطت الصينية من يديّ..

سالت القهوة على البلاط..

أمي كعادتها.. أخترع حلماً وأتركه يمشي في شوارع دمشق، فتأتي هي.. وتخطفه..

72. كل موتٍ ونحن بخير

في مثل هذا الوقت تماماً.. من صباح اليوم الأول في كل الأعياد السابقة.. كنا نذهب أنا وأمي إلى المقبرة، مع باقات الورود.. لنزور قبور والدي وجدي وجدتي.

هذا الصباح لم نتحرك أبداً أنا وأمي عن الأريكة.

بصمتٍ كنا نصغي لتكبيرات العيد، في داخلنا شعرنا بالخجل من أبي وجدي وجدتي.

ثمة حاجزٌ حقير أمام باب المقبرة.. وقد يتم اعتقالي عنده.. لا لشيء، إنما فقط للتسلية وإرهاب الناس.. وقد حدث هذا مع بعضهم.

بكت أمي بصمت.. وأنا أتنهد من بين سجائري.

رنّ جرس باب بيتنا، فنهضت مسرعاً وأنا مستغرب من هذا الزائر في الصباح الباكر.

فتحت الباب.. ثم شهقت غير مصدّق.

أمامي، كانت ثلاثة قبورٍ على شواهدها ابتسامات لطيفة، ومعها الكثير من باقات الورود.

73. في حضرة العرافة

ـ أمي تسلّم عليك وتقول لك، اقرئي لي شيئاً عن مستقبلي...

أخبرتها وأنا أجلس إلى جوارها في ظل تلك الشجرة الكبيرة.

ابتسمت لي هذه العرّافة العجوز بلطف وهي تسكب فنجان قهوة، فشربته على عجل، ودون سيجارة.. حتى لا تتلوّث الحقائق داخل الفنجان بالضباب، ثم ناولتها إياه، لتقرأ لي ما تشاهده في أعماقه.

في سرّي تمنيت أن تعثر داخل فنجاني على فتاةٍ سمراء جميلة، ثم تخبرني بأنها تحبني كثيراً، وأنني سأستلم بيت الجمعية السكنية قريباً، وأنه بعد يومين ستقرع بابي سيدة مسنّة ثرية جداً.. وتجيد طبخ الملوخية، تحضنني باشتياق وتخبرني باكية بأنها هي أمي الحقيقة.. تماماً مثلما حدث مع ريمي.. و...

العرّافة العجوز التي أمضت عمراً كاملاً في قراءة الخرائط السوداء والمتداخلة في فناجين آلاف البشر.. شهقت بعد أن تأملت فنجاني لبرهة، نظرت إليّ وكأنني شبح، ثم سألتني وهي تتلعثم: منذ متى وأنت ميت؟!

74. أنا والذباب والحزب... وأشياء أخرى

في طفولتي كان لدي هواية غريبة أمارسها بمتعة.

طيلة النهار أتجول في حديقة البيت لأصطاد بيدي السريعة عشرات الذبابات وأجمعها في علبة كبريت.

وفي المساء أصرخ على إخوتي وأبناء الجيران، ثم أرفع أمامهم علبة

الكبريت، وأنتظر دقيقة وهم يحبسون أنفاسهم في صدورهم، ثم أفتحها فجأة..لتحلق الذبابات اللطيفة عالياً، وكأنها بالونات ملونة.. في مشهدٍ رائع ومنعش للروح (هكذا كنت أشعر)..

والدتي حاربت هوايتي هذه بكل الوسائل، وعندما يئست، جلست إلى جواري لتحاورني وتقنعني بأن هذه الكائنات قذرة، فشرحت لها آنذاك: الذبابة هي بالأصل كانت فراشة ملونة.. لكنها عندما أكلت من التفاحة المحرّمة غضب الله عليها و..

لم تستوعب أمي فلسفة طفلها، لكن الرفيق والدي ـ للأمانة ـ شجعني على ممارسة هوايتي، وقال لأمي إن هذه الهواية هي هواية بروليتارية بامتياز.

لكن، أول قصة كتبتها في 1997 كانت عن ذبابة، وعندما قرأها قال لي: هل أنت ابني أم ابن كافكا؟..

في صيف 1999 كنت في معسكر للمواهب الأدبية في اتحاد شبيبة النظام، آخر يوم جاءت صبية جميلة ومعها مصوّر.. وفهمنا أنهما من برنامج للمنظمات الشعبية.

مشرف المعسكر اقترح عليها أسماء بعض المراهقين، وكنت أحدهم.

اقتربت مني، وريثما يجهز المصوّر آلته أجرت معي بروفة سريعة مكوّنة من أسئلة كلاسيكية، وكان أن سألتني: ما هي هواياتك؟

أجبتها فوراً: اصطياد الذباب..

شهقت: أتتكلم جاداً؟..

ـ وهل يوجد بيننا مزاح؟..

امتعضت وقالت لي بغضب: أثناء التصوير، قل من هواياتك: المطالعة الأدبية، وقد شجعني الحزب كثيراً واهتم بموهبتي..

ـ حاضر..

بدأ التصوير وأعادت عليّ الأسئلة نفسها، إلى أن سألتني: ما هي هواياتك رفيق مصطفى؟

أجبتها بسرعة:

من هواياتي الحركة التصحيحية.. وقد صلح الحزب حركاتي.. عفواً.. وقد حرّك الحزب تصليحاتي.. عفواً.. وقد خرّب الحزب.. عفواً.. وقد تحزّب الخرب.. عفواً... و... و... و.....

يومذاك ارتبكت كثيراً، أما هي فكادت أن تصفعني، وظللت بعد ذلك لسنوات أتابع برامج المنظمات الشعبية على قناة البرناج العام، لكن لم أشاهد اللقاء.

والدي قال لي مرة، إن اللقاء عُرض في برنامج (طرائف من العالم).

أقلعت عن هوايتي هذه منذ سنوات.

البارحة كنت في السوق عندما بدأت الاشتباكات، فرجعت إلى البيت مسرعاً، ثم دخلت باب البناء وأنا أتنفس الصعداء.

شاهدت ابن الجيران وهو يصطاد الذباب بمتعة في المدخل.. انحنيت إليه وقلت: الذبابات كائنات قذرة..

أجابني بغضب: لا يا عمو.. الذبابة بالأصل كانت فراشة ملونة، لكن الله عاقبها لأنها..

قاطعته: لأنها أكلت من التفاحة المحرّمة..

ابتسم لي فرحاً وقد عثر أخيراً على من يفهم فلسفته، قبّلته ثم صعدت الدرج، وقبل أن أغيب عن نظره ناداني: (يا عمو)! استدرت إليه، فقال بحزن: لا أحد يعرف ما قد يحدث لنا في الأيام القادمة.. قد أذبح في أي لحظة، مثل أطفال بانياس والبيضا.. لهذا، يا عمو.. الذبابات أمانة في رقبتك...

75. هلوسات في مساءات الحرب

من هوايات سيجارة الحمراء الطويلة: الملل.. وأنا.. والشاي البارد.

عندما يشتم الإنسان الله، شتيمته تسمى (كفرية) وصاحبها يسمى (كافر).

لكن..

عندما يشتم الله الإنسان، شتيمته ماذا تسمى؟ والله في مثل هذه الحالة.. ماذا يسمى؟!

من هوايات كأس الشاي البارد: ذبابة يتيمة.. تظن أني خطيبها.

لا أغادر غرفتي منذ أشهر، فالحارة محاصرة بحواجز حقدهم.

في المساء أجلس على أريكتي، عن يميني اللابتوب وأغاني لـ (خوليو).. لا أفهم كثيراً ما يقول، لكنني أشعر بأنه يشيّعني.

وعن يساري شباك غرفتي، عبره.. أتأمل الأطفال وهم يلعبون الكرة بصخب، دون اهتمام للقذائف التي تسقط على الأماكن المجاورة.

وأنا أتأملهم لمحت والدي (المتوفى) يلعب بينهم، ويسجل أهدافاً رائعة.. ودعماً مني له صرت أصرخ لأجله: (كووووول لسوريا) تماماً مثل عدنان بوظو.

كم كنت أكره صخبهم قبل الحرب! الآن.. ضجيجهم يمنحني شيئاً من الطمأنينة.

أتأملهم ثانية.. فأشاهدهم في مجزرة جماعية، رقابهم مذبوحة، وكرتهم تقرأ على أرواحهم الفاتحة.

حاولت أن أبكي متأثراً للمجزرة التي اقترفها خيالي، لكنني فشلت، واكتشفت أني لا أملك دموعاً.. واليوم ـ لسوء حظي ـ يصادف العطلة الأسبوعية لبائع الدموع.

ثمة طائرٌ حطّ على شباكي، وساعدني بأن نقر على وجهي بضع نقراتٍ لطيفة، فترك قليلاً من لعابه على خديّ.. ليصير لعابه مثل دموع.. عندئذٍ، اقتنعت بأني أبكي.

اشتقت للشوارع وللحدائق، ولوقت انصراف مدارس البنات برفقة صديقي أيام المراهقة: (هاني شاكر).

الإقامة الجبرية أصابتني بوسواس خطير.

دائماً.. وكل بضع دقائق، ألتقط المشط لأمشط بقسوة شعري الطويل جداً (لأن حلاق الحارة مؤيد).

ثم أنتبه ـ في كل مرة ـ إلى كمشة من شعري عالقة بين أسنان المشط، أنزعها.. ثم أقذفها من النافذة بلا مبالاة..

فجأةً، كمشة شعري المقذوفة، تتحوّل في الهواء لعدة قصص، وتحلق عالياً..

يا أيها السوريون...

ألم تنتبهوا لازدياد عدد القصص في سمائنا، منذ أن اختفيتُ من الشوارع؟!

76. كبت

لا أزال أكره تلك المعلمة التي درّستنا في الثالث الإعدادي، فبعد أن تغيّبت عن المدرسة لأسبوع.. عادت فانتبهت إلى أن عدد الطلاب في صفي قد ازداد بسبب انتقالات بداية العام الدراسي. قالت لنا وهي تبتسم: عددكم ازداد كثيراً!

أجبتها ببراءة: لقد كنا نتكاثر في غيابك... وابتسمت لها ببلاهة، فأسرعت إليّ وكأني قد فجرت قنبلة، ثم صفعتني بقسوة وهي ترتجف.

تألمت كثيراً، مع أني يومذاك لم أكن أقصد ذلك التكاثر الذي يتم عن طريق ممارسة الجنس، إنما ـ وأقسم بالله ـ كنت أقصد التكاثر عن طريق الانشطار، مثلما فهمنا من كتاب العلوم.

وقتئذ كنت أظن أننا نحن البشر، وخصوصاً الرفاق البعثيين.. نتكاثر بالانشطار.

آنذاك لم أكن أعرف ماذا تعني كلمة (جنس) كأي ولد يعيش في دولة عقائدية، تحشد طاقاتها لزجها في معركتها المصيرية ضد الإمبريالية.

حتى عندما صرنا في الجامعة، كنت مع الشباب عندما نريد أن نقول عن شخص ما، إنه قد مارس الجنس.. نقول هذه العبارة: (ذلك الرجل، كان هو وزوجته ليلة البارحة.. يقرأان كتاباً لـ سيغموند فرويد).

77. الموجز السينمائي لحياتك وحياتي، كما روته الشاشة الكبيرة للعتمة

رغم كل ماحدث بيني وبينك، لا أزال أحبك في كل تقمصاتك السينمائية. وعند نهاية كل عرض سينمائي أظل في الصالة حتى يخرج الجميع، لأكنس بقش قلبي ما قد تناثر من صورك بين المقاعد.

حذرتك طويلاً من المشاغبين الثلاثة (فيلليني/ هيتشكوك/ بولانسكي)، إنهم يريدون ـ دون لفّ ودوران ـ تقاسم سريرك.

فضحك (برغمان) سيكولوجياً، رغم أنفَي الرفيقين (غودار/ وغافراس)، وحده الشيخ (تاركوفسكي) أنقذك بتعويذاته الروحية.

لم أخفْ عليك عندما حملتك (الموجة الفرنسية الجديدة) لتقذف بك إلى أحضان (الواقعية الإيطالية الجديدة) فصديقي (تروفو) طمأنني بأنه سيخيط لك تنانير قصيرة، كلما عراكِ قليل الأدب (بازوليني) الذي يتجاهل بحق أنوثتك كل (قوانين الدلال) وكأنك فقط (راقصة التعري) يتساءل محششون.

أنت التي تغيّرت، وأنا كما أنا منذ (الأبدية ويوم) أرتلك خيالاً في (موقف الباص) أو في (كبينة الهاتف).

همست لك ذات سكرة: (21 غرام) أقل بكثير من الوزن الحقيقي لروحك، روحك التي بلغت نشوة الكمال في (البجعة السوداء).

يوم انتحرت في (نصف القمر) أنا وسجائري خرجنا في جنازةٍ مهيبة نشيّع فيها ذاكرتك الميتة في (صانع النجوم).

سحرني خصرك الطري في (تانغو)، فغضب مني (جيفارا) وقد أغوته مفاتن الثورة أكثر من مفاتنك في (البعض يفضلها ساخنة)، وتركني أسافر وحيداً إلى جسدك على (ترامواي الرغبة) يا (اسم الوردة) فجسدك أشهى من (طعم الكرز) كما جاء في (الألواح السوداء) وعلى هذا تشهد (المعتقدات الأرجنتينية).

حتى أن السرطان تسلل إلى قلبي قبل أن يتسلل إلى روحك بمشهدين في (كل شيء عن أمي) ولأجلك بكيت كثيراً وأنت تحتضرين وحيدةً في كهفٍ مهجورٍ من الضوء في (المريض الإنكليزي) فصرخت بوجه القدر: كيف تموت من كان قلبها مرتفعاً أكثر من (مرتفعات وذرنغ)؟!

يحلو لي أن أسميك (لوثيا) ويحلو لك أن تسميني (فرانكشتاين) وتدلعيني بـ(بينوكيو) يا (حبيبتي هوريشيما).

كرهتك كثيراً وأنت تسألينني في (مدام بوفاري) بغرورك البرجوازي: من أنت؟ فأجابك مارلون براندو بأن باح لك بكل أسئلة وجودي وضياعي في (آخر تانغو في باريس).

هل تعلمين يا (لوليتا) أنني في زنازين الجهات المختصة، اكتشفت كم كانت (الحياة حلوة) في زنازين (شاوشينك) ـ يتساءل مدفونون.

كان لا بدّ لي من أن أكره بيتك معك في (منزل الرمال والضباب) وكل بيوتنا في سورية حلت عليها (القيامة الآن).

لم أسامحك لأنك قتلتني في (المرأة في البيت المجاور) فثأرت منك لأقتلك في (حياة الآخرين) ثم بكيت على جثتك متذكراً الـ(400 ضربة) التي تعرضت لها في طفولتي على يد (ماما روما) بكيت وروحك تلوح لي من فوق (جسور مقاطعة ماديسون) وأنا أهذي بقهر (وداعاً بافانا).

لا أشبهك ولا تشبهيني...

أنا حيٌّ أشاهد الأموات في (الحاسة السادسة) وأنت ميتة تشاهدين الأحياء في (الآخرون).

أتذكر يوم كنت أغرق بسببك مع ركاب الدرجة الثالثة في (التيتانك) فمددت يدي عبر الشاشة الكبيرة لـ عصام كنج الحلبي حتى ينقذني، فناولني سيجارة وهو يقضم بنهم (التفاحة) وتمنى لي غرقاً جميلاً، ثم قال لك: انسيه.. مصطفى (ذهب مع الريح).

شكوتك لإله السينما، كم كنت برجوازية، وكم كنت أنا تروتسكيَّ النزعة، لهذا تهشمت جمجمتي بفأس على الرأس في (فريدا) بعد أن تجاهلت كل طفولتي في (مالينا).

أنا لست شبيحاً كريهاً لأصمت بقذارة وأنت تخونيني مع ابن الجيران في (القارئ) ولست بطة لأحتفظ بحق الرد، لهذا خنتك مع كومة نساء في (كازانوفا).

ولهذا شتمتك أيضاً.. وقتئذ جلست إلى جواري في عتمة الصالة لتخبريني عن تاريخك النضالي الطويل من (ساكو وفنزاتي) وحتى (الطبقة العاملة تذهب إلى الجنة) مروراً بـ(المدرعة بوتمكين).

يكفينا شعارات، أنا وأنت يكذب كل منا على الآخر، فمنذ 18 آذار صرخنا معاً: (وداعاً لينين) و تركنا كل الـ(حمر) حيث أخذنا (سائق التكسي) لـ (لقاء جوبلاك) فتصادمنا مع شبيحة (كل رجال الملك) الذين هم (قتلة بالفطرة).

تاريخك النضالي يا عزيزتي كله صار الآن وهماً على وهم.

لهذا عاقبتك بأن قطعت إصبعك في (بيانو) ثم استخرجت من جثتك كل (العطر) لأعيش مع (عطر امرأة) وحيداً في (غرفة الابن) داخل (منزل الأرواح) في حارة داكنة من (المدينة الصامتة). ولأرقص بوحشة كـ(زوربا) في (المخبأ السري) (تحت الأرض). ثم اكتشفت متأخراً وبندم، أنني لست (صائد الغزلان) وأنك أنت مجرد وهم كبير كـ(سيمون) أمارس معك (الخطايا السبع) كأي (ناس عاديون). وأن زمننا هذا هو بامتياز (زمن الحمير المخمورة).

تعبت...

تعبت، وأنا أطاردك فيلماً فيلماً.. وكأنني مجرد (كلب أندلسي) يقفز من (النافذة الخلفية) تحت (المطر) ليبحث مع (أطفال السماء) عن (راقصة في الظلام) قبل أن يورطني (المواطن كين) بمشاجرة فلسفية في (نادي القتال).

تعبت..

وأنا بعد كل عرض سينمائي أكنس ما قد تناثر من أفراحك وأحزانك، وما قد تناثر من قلبك وجسدك عن أرضيات صالات السينما.

لكن، وحتى هذه السيجارة لم أعثر عليك أبداً في حياتي كلها...

حياتي، التي هي فيلمٌ كئيب أخرجه الله، عن سابق إصرار وترصد، وتدخين....

78. نهاية غريبة لـ نازح سوري في مدينة تركية

أقفُ أمام المرآة فلا أشاهد نفسي على زجاجها.. الملل يدفعني إلى أن أتشاجر مع الحياة كل ثلاث دقائق، أحب التثاؤب والشوكولا والتدخين والملوخية.. ملامح وجهي هي تعريفٌ جامعٌ مانعٌ لـ الكآبة.

مالتْ برأسها حتى كتفي، ثم سألتني بهمسها الخافت:

ـ ما هو أكثر شيء يعجبك في الأنثى؟

ـ الكبد..

ـ الكبد؟!..

ـ نعم.. الكبد..

ـ هل أنت أبو صقار؟..

ـ ابن عمه..

قال لي صاحب الحانة في تلك الليلة وهو يربت بلطف على كتفي:

ـ لا تتعب نفسك صديقي.. لدينا الكثير من الأغنيات الجميلة..

خرجت إلى الشارع، فخرج أورهان باموق من منتصف الليل واقترب مني مسرعاً، قلت له بجدية:

ـ رجاءً.. من دون تصوير..

تبدو لي المدن السورية أوراقاً صفراء على شجرةٍ هرمة، والدنيا خريف.

تثاءبتُ.. كان رأسها لا يزال معلّقاً على كتفي فوق سريري.

تأففتُ منها ثم غرستُ سيجارةً بين شفتيّ، الشبح الذي يعيش معي منذ أن خلقتُ، علّق قميصه عليها.

هو دائماً يظن سيجارتي مسماراً، ويظنني جداراً.

سألته بريبة: هل كنت تراقب ما فعلناه منذ قليل؟..

سألتني هي: مع من تتكلم؟..

ـ مع دخان سيجارتي..

أغنية لـ دورا بندلي تقطع تذكرتين لنصعد معاً المترو، ينطلق.. فنتأمل ـ أنا والأغنية ـ عبر نافذته صوراً دموية سريعة التعاقب من المجازر السورية.

يتوقف المترو.. ولا تتوقف الصور.

الشوارع التركية تجيد تقليد الشوارع الدمشقيّة، لكن النهايات تختلف، تختلف كثيراً.

توسلتُ لي زجاجة العرق: أريد أغنيةً لـ نعيم الشيخ..

عن سمير عن عامر عن خليل (لعنهم الله!) قال كمال:

ـ لا حياة للعرق في هذا القطر إلا مع نعيم الشيخ..

تواترٌ لفظي تشكك به كآبتي، يتداوله المخمورون من الأصدقاء كل سكرة.

هذه الجميلة عضتني من كتفي عضة ناعمة، بدايةً.. ظننت أنها تمسح أنفها بكتفي.

ناولتها منديلاً.. ناولتني صفعة.

صفعتها الناعمة على خدي، أدت إلى تراجع التسوس قليلاً بين أسناني.

استنتجت في سري: (ببضع صفعات ناعمة منها على وجهي سأهزم التسوس الذي يملأ فمي، وفم هذا العالم).

يُقال إن الله خلق الحياة بـ سبعة أيام، ويُقال إن إنغمار برغمان أخرج الحياة بـ سبعة أفلام.

قال لي شبحي:

ـ خيّل لكما أنكما قد مارستما الحب.. أنتما، ولنصف ساعة كنتما تمارسان البكاء.. وهذه دموعكما.

ثم أشار إلى ثيابي وثيابها المرمية في تلك الزاوية.

البارحة قررت أن أنتحر، استلقيت على السكة، جاء المترو ومضى.. لم أمتْ.

سمعت أحدهم يصرخ (Stop).. التفتُّ فشاهدتُ إنغمار برغمان يوجه ملاحظاته السينمائية لـ مساعديه.

كتفي كراجات للبشر، من صاحب الحانة حتى هذه الجميلة.

ـ من أين أنتِ؟..

ـ من الطابق الخامس.. وأنتَ؟..

ـ أنا من الطابق الثاني..

تعرفتُ إليها أمام باب المصعد.. كنا ننتمي إلى مدن سورية مدمرة، صرنا ننتمي إلى طوابق في بناءٍ تركي شاحب.

كلما شربت، أغني أغنيات غير مفهومة، لكنني أظن أنها جميلة.

خطئي هو ذاته خطأ مارلون براندو في فيلم (التانغو الأخير في باريس).

أُعجب بأنثى، وبعد أن نبكي ملابسنا معاً على سريرٍ أضيق من حياتنا، يخطر في بالي أن أسألها عن اسمها.

أنا وشبحي شهقنا بخوف، عندما قالت لي: اسمي زينب..

لست طارق بن زياد، لكنني عندما دخلت مع عامر هذا المتجر، همس لي شيطاني: يجب أن تحرق كل (البسكليتات).

سألني صاحب المتجر الذي كان من المحتمل أن أعمل عنده: ما هي الخبرات التي تملكها؟..

ـ تصليح البسكليتات وتطبيق البنات..

ـ يا عين..

نظرت حولي لأقول لـ عين إن قهوتي سادة، فقال لي مصطفى كمال أتاتورك من صورته المعلقة على الجدار: أنا وأنت.. ومصطفى ثالثنا..

سألني صاحب المتجر: ماذا كنت تعمل في سورية؟..

ـ فزاعة..

ـ فزاعة؟!..

ـ نعم فزاعة.. بعض المواسم الزراعية تصادف عطلة الصيف.. كنت

أذهب إلى الريف مع زملاء في الجامعة.. ثم نتفق مع أحد الفلاحين على أن نقف في منتصف أرضه بالتناوب.. حتى نخيف الطيور..

انزعج كثيراً عندما وضعت ساقاً على أخرى، وأنا أشعل سيجارة.

في المساء قال عامر لـ ندى على الهاتف: حظنا جميل.. مرت على خير.. صاحب المتجر لا يملك مسدساً..

بعد ذلك بدقيقتين همس لي شيطاني: لماذا تركت بسكليتك وحيداً؟..

لم أكترث لهما.

شربت الكثير من النبيذ الرخيص، كما هي حياتي.

عندما نمت، تسلل إلى حلمي كل فلاحي البلاد، عزفوا موسيقاهم بآلاتهم المتواضعة، وغنوا أغنياتهم الجميلة.

أمي كانت قائدة الأوركسترا.

طوال الليل، أنا والفزاعة التي تسكنني كنا نتمايل بطرب، ونتمايل ونتمايل و....

من منكم كان ثالثنا؟

الأسبوع الماضي ابتلعت ذبابة.. لا تغييرات جوهرية طرأت على شخصيتي، سوى أنني بدأت أكره الفراشات.

كل ساحرة تصرّ على الطيران بمكنسة من القشّ، لا بمكنسة كهربائية.. لا يعول عليها، شرحت هذا لـ عامر ونحن نصعد المترو.

لا معدتي استطاعت هضم الشوارع التركيّة، ولا معدة الشوارع التركيّة هضمت ملامحي.

عندما دخلتُ في القلق.. خرجتُ من قلب الله، في الوقت ذاته خرج الثوار من حمص و دخلوا في قلب الله، صادفنا بعضنا في منتصف الطريق، تبادلنا القبلات، ثم.. أنا مضيتُ إلى مزيد من العتمة وهم مضوا إلى مزيد من الضوء.

حدث الأمر مصادفة.. كنت أتثاءب عندما ظنت الذبابة أن فمي هو بيت مفروش بلا سكان.

في المترو.. قال لي الشاب التركي الذي يجيد العربية مبتسماً: أصبحنا نحن الأتراك هنا.. بسببكم.. أقليّة..

صرخت في وجهه بنزق: عليّ الطلاق لن أعطيكَ أي تطمينات..

يبدو لي المترو أغنية كئيبة، لكنها طويلة.

في المقهى جلست أمامي صبية جميلة، أنا تأملتُ ركبتيها.. وهي تأملت أوراقي، بين ركبتيها وأوراقي تعثر النادل بخيالاتنا عدة مرات.. ولم يعتذر.

مساء البارحة، شاهدتُ في مطعمٍ متواضع ذلك الشاب التركي، لوّحنا أحدنا للآخر عن بعد، همستُ للنادل:

ـ قدّم لذلك الصديق على حسابي صحن تطمينات.. بالزيت..

هذا الصباح حاولت جدياً أن أكون سعيداً.. فشلت، ثم حاولت أن أكون حزيناً.. أيضاً فشلت.

أشعلت سيجارة، فنجحت بهذا نجاحاً باهراً، صفقتْ لي بحرارة كل الرسوم البدائية التي رسمتها على الجدار سابقاً.. انحنيتُ بتواضع.

خطر ببالي أن أنتحر، التقطتُ سكيناً ثم غرسته في صدري، واستلقيتُ بهدوء على الأريكة.

يُقال إن الاحتضار مفيد للكلية، مثل المتة.. لم أستطع التأكد من صحة هذا الكلام، لأن نظارتي كانت بعيدة.

آخر ما حدث لي في هذه الحياة، في نهاية نزيفي.. وفجأةً، تحوّلت إلى ذبابة، ذبابة داكنة ملامحها ضائعة.

على الجدار ودّعتني رسومي بأن لوّحتْ لي وأنا أطير.

عبرتُ من النافذة، ثم حلقتُ عالياً.. عالياً.. عالياً..

79. أنا وجثتي

كل ما في الأمر، هو أنني قد اشتقت إلى جثتي كثيراً، التي كنت قد خسرتها منذ أشهر قليلة، عندما سقطت عليّ قذيفة في ذلك الشارع، فقررنا إثر ذلك أنا وبعض الشبان، خلع جثتنا وتركها وسط الشارع لنمضي مبتعدين عنها.

قررت أن أزور جثتي لأطمئن عليها، فتوجهت إلى المشفى الوطني، حملت معي قليلاً من الشوكولا.. لأنه من المعيب زيارة الجثث دون هدية.

في المشفى الوطني نزلت إلى القبو، حيث توضع عادة الجثث مجهولة الهوية في البرادات.

أعطيت الموظف البدين قصاصة ورق عليها رقم جثتي، فتأملها بكسل من خلف طاولته.. ثم قال لي: هذه الجثة.. موجودة في ذلك البراد..

ثم مشيت إلى حيث أشار بسبابته، التقطت الحلقة المعدنية لأفتح هذا البراد الشبيه بدُرج طويل.

سرعان ما شهقت.. لم أعثر على أي جثة، إنما عثرت في جوف هذا البراد على الكثير من القصص الشاحبة والمتناثرة في عتمته عشوائياً.

عندئذ ابتسمت..

أنا، هذا الضوء البسيط.. كل ما تبقى من ذلك الإنسان.

80. لم أعرف كم كان الليل

وكان أن أضعت (القداحة).. فجأةً، والدي الذي توفي منذ سنتين خرج من خزانتي، ناولني واحدة وهو يبتسم، ثم رجع إلى داخل الخزانة.. في سرّي شكرتُ الله لأن والدي لم ينتبه لهذه العارية النائمة على سريري..

وعلى سبيل الغزل عرقلتها عندما مشينا إلى المطبخ لنأكل، لا أغيّر

عادتي هذه أبداً.. كلما شربت كأسين من النبيذ أبدأ بارتكاب (الغلاظات) الحلوة بحق أقرب جميلة.

التفتتْ إليّ بغضب، فصرختُ بها:

ـ خذي ضربة جزاء..

الفراشة التي سقطتْ على كتفها وتحوّلتْ إلى وشم، لم ينتبه لها سوى المراهقين.

الصرصار الذي سقط على كتفي وتحوّل إلى وشم، أرغم كافكا على أن يكتبني.

أحاول أن أقنعها بأن مدينتي هي أكثر المدن السورية حزناً.

تحاول أن تقنعني بأن مدينتها هي أكثر المدن السورية حزناً.

ثم نقرع كأسينا ونشرب، لتسكر في خيالنا مدننا التي هربنا منها.

انفجارات كونية عظيمة وصامتة راقبتها في دقيقتين.

الأقمار تتطاير وتتفتت، الكواكب ترتطم ببعضها، المجرات تسقط في انفجارات شموسها.. في مشهدٍ سينمائي بطيء.

كل هذا حدث عندما استلقيتُ جانب جسدها العاري، وكأبله، مددتُ سبابتي لأضغط بلطف على حلمة نهدها.

أعتذر يا الله.. لم أكن أعرف أن الضغط على حلمة نهدها هو الطريقة الوحيدة لتدمير هذا الكون.

دائماً يأخذني السرد القصصي إلى حيث لا أريد، يشبه أمي في طفولتي، لم تأخذني إلى مدينة الملاهي، أخذتني دائماً إلى سوق الخضار وأحياناً إلى قبر أبيها.

ـ أنا أسيرة الأحزان..

قالتْ لي بنعومة، استغربتُ!.. لم أسمع سابقاً أن البلدية قامتْ بتزفيت شارع أو تبليط رصيف في منطقة الأحزان.

ـ أنا أسير في نومي.. أحياناً أطارد أشخاصاً غامضين.. وأحياناً هم يطاردونني..

تَصلحُ الحرب أن ينحني أحدنا عليها في وقت متأخرٍ من ليله ليشعل منها سيجارته.

اختفى ظلي فجأةً.. من أيام قال لي إنه ذاهب لشراء علبة سجائر ولم يرجع، أخبرت إمام الجامع، فصاح عبر مكبرات الصوت حول المئذنة:

ـ من يعثر على ظلٍّ ضائع، فليجلبه إلى الجامع، وله الأجر والثواب في الآخرة..

على السرير سألتني من بين قبلاتنا الباهتة:

ـ أتحبني؟..

ـ شَعرك جميل.. يشبه الملوخية..

ـ أتحبني؟..

ـ تركت الحب في مدينتي.. حقيبة هروبي كانت صغيرة..

الثلاثاء الماضي، أثناء مشادة كلامية حادة بيني وبين شخص آخر يسكن في داخلي، سقط الإبريق، فسال الشاي الساخن على ساعدي.

لدقائق وأنا أتأمل البخار الحار وهو يتصاعد من ساعدي، وأتساءل في سري:

ـ ماذا يمكن أن يقول الإنسان في مثل هذا الموقف المحرج؟.. نسيت..

أتعبتها وأتعبتني، ومعاً أتعبنا سريري الضيق بعد أن نزحنا عن ثيابنا.

عندما انتشتْ المدن السورية المدمرة داخل جسدينا.. بكتْ هي بصمتْ، ثم نمنا.

استيقظتُ بعد قليل، لم أعرف كم كان الليل، لكنني شعرتُ بأنه كان كثيراً.

نظرتُ إليها فاكتشفتُ أنها قد ماتت.

استدرتُ لأغني أغنيات بلغة غير مفهومة، فلوّح لها مودعاً الصرصار من فوق كتفي.

جاء الصباح فأجفل ضوءه الغبي موتَها البارد.

حملتها بين ذراعي وقفزتُ بها من نافذتي في الطابق الخامس.

تجمع الناس حول جثتينا العاريتين فوق الرصيف، نزل الصرصار عن كتفي ومشى مبتعداً علّه يعثر على كتفٍ آخر يبدأ فوقه حياةً جديدة.

سألتها بصمتٍ:

ـ أمعقول أن لا نعثر على سجائر في العالم الآخر؟..

ابتسمتْ وقالت بصمتٍ:

ـ أريد ضربة جزاء..

مصطفى تاج الدين الموسى:

كاتب سوري، صدرت له مجموعة قصصية بعنوان: «قبو رطب عن ثلاثة رسامين» في طبعتين (الإمارات/ سورية). حاز على عدة جوائز أدبية في القصة القصيرة، منها جائزة الشارقة للإبداع العربي 2012. يقيم حالياً في غازي عنتاب، تركيا.

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»، بمساعدة من جمعية «**مبادرة من أجل سورية جديدة**» ـ باريس، الكتب التالية:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.

يعشعش الموت في المقطوعات الحزينة
التي يعزفها صاحب هذه الشهادة.
يختبئ بين الكلمات، خلف السطور، تحت
الفواصل والنقط.
تكاد البلاد أن تصبح مقبرة
لكن، ثمة قصصاً شاحبة تبقى متناثرة في
عتمة برّاد الجثث.
هذه القصص هي جمر الإبداع الذي لا
ينطفئ نوره.

بيت المواطن
للنشر والتوزيع